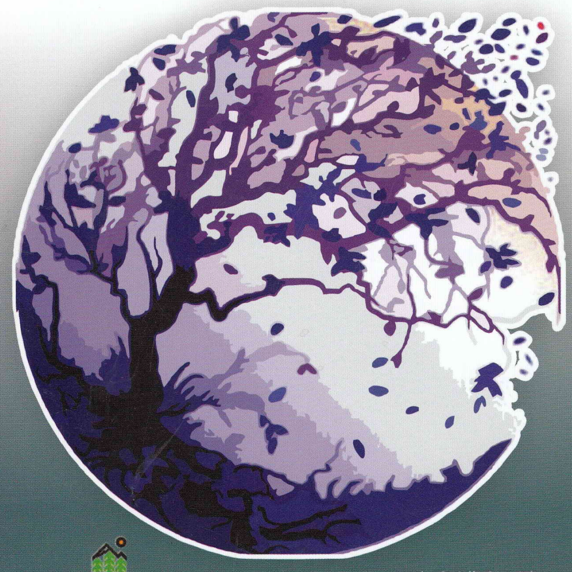
حسن السيد عز الدين بحر العلوم

الأصول المشتركة للأديان



مبرة المرحوم محمد رفيع حسين معرفي الخيرية
MOHAMMED RAFIE HUSAIN MARAFIE FOUNDATION

العارف للمطبوعات

الأصول المشتركة
للأديان

الأصول المشتركة للأديان

حسن السيد عز الدين بحر العلوم







الأصول المشتركة للأديان

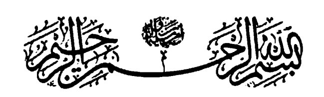
حسن السيد عز الدين بحر العلوم

الطبعة الأولى
حزيران/يونيو 2013

القياس: 21.5 x 14.5
عدد الصفحات: 173
ISBN 978-9953-574-91-2

نشر وتوزيع
شركة العارف للأعمال ش.م.م.
العارف للمطبوعات

بيروت - لبنان
00961 1452077
العراق - النجف الأشرف
00964 7801327828
Trl: www.alaref.net



﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

سورة آل عمران: الآية 84

كلمة المبرة

الدين هو المنهج الذي يربط الإنسان بمن يدين له. ومنذ أن وطأت قدم الإنسان الأرض وجدت الحاجة للدين، وتزداد هذه الحاجة كلما تطورت الحياة المادية وطغت على حياة الناس. وديننا الإسلامي هو خاتم الأديان وينظر للأديان الأخرى قاطبة باحترام واهتمام ووفق المفهوم الإسلامي.

نعتقد أن الشريعة والدين الذي بعث به النبي محمد ﷺ إنما هو متمم لمسيرة الشرائع والأديان السابقة، لهذا كان الإيمان بها شرطاً في عقيدة المسلم لأن الأديان السماوية عبارة عن منظومة واحدة تمتد في حياة البشر على شكل مراحل تقتضيها ظروف البعثة ومصالح البشر.

إن تعدد الأديان اليوم شكل ظاهرة قائمة بحاجة إلى دراستها وتسليط الضوء عليها خصوصاً أن فيها مشتركات كثيرة يمكن أن يوفر تسليط الضوء عليها جواً للتقارب أكثر ليكون منطلقاً لفهم الآخر بعيداً عن الانزواء والتقوقع.

ومن هذا المنطلق جاء الكتاب الذي بين يديك - أخي القارئ - لمؤلفه سماحة السيد حسن بحر العلوم ليكون لبنة في بناء هذا الهدف النبيل ومحاولة لفهم القواسم المشتركة من أجل التركيز عليها لننطلق منها إلى فضاء أرحب في مساحة الأديان.

ولهذا سعت مبرتنا (مبرة المرحوم محمد رفيع حسين معرفي

الخيرية) لطباعة هذا الكتاب على نفقتها وتقديمه للمهتمين لأنه يلتقي مع أهدافها لخدمة العلم والفكر والإنسانية سائلين المولى جل وعلا أن يوفقنا للمزيد من العطاء في طريق الخير.

مبرة المرحوم محمد رفيع حسين معرفي الخيرية

دولة الكويت 5/ 5/ 2013م

المقدمة

نقف أمام حقيقة لا يمكن إنكارها هي حقيقة الوجود الديني، الذي نراه جزء من حياة البشر، فلا تخلو بقعة من الأرض من معلم ديني أو انتماء.

ومما يلفت الانتباه في هذا الواقع اختلاف الانعكاس الديني والسلوك الخارجي تبعاً لما يمليه الاعتقاد بالنسبة لأتباع كل دين من الأديان المتعددة، وقد تتفق في كثير من الأحيان أو تختلف. وقد نجد مظاهر التعدد الديني حتى في المساحة الجغرافية الصغيرة. وقد نرصد أحياناً حالات من التنافر الطريف في واقعنا على طول التاريخ، وأحياناً يكون التنافر بدرجة من السلبية قد يهدد حياة وكيان من كيانات البشر.

لهذا أصبحت الحاجة ماسة لوضع رؤية معمقة في حقيقة الأديان أولاً، ومن ثمّ التركيز على الأصول المشتركة فيها. فحينما تنطلق من الله تعالى فالمصدر مشترك، وهذا أول منطلق يمكن أن نبني عليه خطة العمل. آخذين بالحسبان التشعب في عمق الفجوة الحاصلة من جرّاء الامتداد التاريخي والعوامل الخارجية الأخرى.

هناك أديان نسلّم بأنها سماوية تتضح وتبرز فيها المشتركات في مجال العقيدة والشريعة، بحيث يمكن أن نركز عليها كحالات مشتركة يمكن أن نسلط الضوء عليها أكثر، ومساحة الحوار كبيرة

في هذا الجانب خصوصاً لو أخذنا بنظر الاعتبار الثورة العلمية لوسائل المعرفة والاتصال.

نعم هناك أديان ربما لا أصل سماوي لها، وهي من إيحاءات البشر، كما ودخل التحريف في مفاصل الأديان السماوية أيضاً، فكان البحث عن نقاط مشتركة مهمة في غاية الصعوبة.

فالمحاولة بقدر ما لها درجة من الأهمية تبقى محاولة، إن لم يكن تأثيرها بالمستوى المطلوب، نظراً لخطورة الوضع، فلا أقل من كونها تعزز المشتركات وخطوة على الطريق، وظني أن يستجيب لهذه المحاولة من يملك وعياً ومعرفةً ويريد أن يكون بمستوى الانتماء الديني.

ختاماً بودي أن أشير إلى .. أن الدين الإسلامي الذي أؤمن به وأنتمي إليه، وأعتقد يقيناً بأنه خاتم الأديان، ولابد لشريعته أن تسود، وأنه المكمل لكل الأديان السماوية، لهذا حينما قمت بدراستي هذه فقد انطلقت من هذا التصور واضعاً بالحسبان أن البحث عن الأصول المشتركة للأديان ربما تجعل للأديان الأخرى طريقاً لفهم الدين الإسلامي.

والله من وراء القصد

حسن السيد عز الدين بحر العلوم
جمهورية العراق ـ النجف الأشرف
9 جمادى الثانية 1434هـ
20/ 4/ 2013م

المحور الأول

الـــدين

توطئـــة:

منذ أن وطأ الأرض الإنسان، كان هناك الدين، وكانت شريعة آدم عليه السلام هي الشريعة المنزلة من السماء لتنظم علاقة الأرض (الإنسان) بالسماء (الله) سبحانه: ولتنظّم علاقة الإنسان بأخيه الإنسان. فالإنسان كائن بحاجة إلى تعاليم إلهية في حياته. وهو منذ فجر التاريخ، كان بحاجة إلى الدين لإشباع حاجة فطرية فطر الإنسان عليها، فهو دائب البحث عن قوّة عظمى يؤمن بها، ويحتمي بها، ويلجأ إليها وقت الشدّة. وهذا البحث الدائب غريزة أصيلة في نفس الإنسان، لا يمكن له الانفلات منها. فهو مندفع غريزياً إلى تلبيتها، والاستجابة لمتطلباتها، وضروراتها، سواء كان الدين سماوياً أو أرضياً.

الدين ضرورة نفسية، وحاجة اجتماعية. والإنسان ـ الذي وهبه الله عقلاً ـ دائب التفكير في كيفية خلق السماوات والأرض، والأكوان جميعاً. والإنسان بصورة خاصة يهديه عقله ـ في كل الأحوال ـ إلى وجود خالق حكيم عليم رؤوف رحيم، مدبّر قوي عزيز، أطلق عليه المؤمنون بالأديان السماوية اسم (الله) أو (الرب) وأطلق عليه منكرو الخالق اسم (الصدفة) مرة، واسم (الطبيعة) ـ

أخرى - إلى غير ذلك من المسميات. وهي كلها تجمع على وجود خالق وإن اختلفت اسماؤه وصفاته عند هؤلاء وأولئك.

هذا العقل الموهوب للإنسان، والمميّز له عن سائر الكائنات والمخلوقات، أضاف لله صفات ومسميات استتبعها بوظائف وواجبات، استدعت وجود نظم اجتماعية وأخلاقية، وطرائق فكرية ومنهجية، فكان الدين ضرورة عقلية لوضع ضوابط العيش المشترك بين الناس وتنظيم العلاقة بين الخالق والمخلوق لضمان سلامة المجتمع الإنساني من جهة ولضمان العقاب والثواب على الأفعال من جهة أخرى.

كما أن هذا الإنسان يمارس حراكاً اجتماعياً، وقد بات بحاجة إلى ما ينظّم هذا الحراك بما يتضمنه من علاقات اجتماعية، أو مصالح اقتصادية. فكان بحاجة إلى الدين نظاماً اجتماعياً يحدّد طبيعة علاقاته مع الإنسان الآخر، فكان الدين ضرورة اجتماعية.

تعدّدت الأديان السماوية بتعدّد الحاجة إليها، وبتعدّد الظروف التي اقتضت نزولها، وإنزالها. لكنها اتحدت في الأصول والمبادئ، وإن اختلفت بالتفاصيل والفروع تبعاً لظروف انزالها. لهذا يمكن القول. إنّ دين الله واحد، لأن منزله (الله) سبحانه واحد، وهدفه - وهو اسعاد الإنسان - واحد، وسبيله إلى ضمير الإنسان وعقله - وهو الاقناع - واحد.

وكما أن هناك أدياناً سماوية إلهية أنزلت، كانت هناك أديان أرضية بشرية نبتت وقامت إشباعاً لحاجة الإنسان إلى الدين، وتلبية لضرورة نفسية وعقلية. وهذه الأديان - مثلها مثل الأديان السماوية - تدعو إلى القيم النبيلة، والفضائل الخلقية الكريمة، وإلى تسامي الإنسان على حاجاته المادية ابتغاءً لتحقيق أهداف سامية للفرد

والمجتمع. وهكذا رأينا الآلهة لدى الفراعنة ولدى سكان بلاد الرافدين الذين تركوا تراثاً من الأدعية والتوسلات بالآلهة من أجل حمايتهم من الأمراض والكوارث الطبيعية مثل إله الرعد وإله المطر وإله الزراعة وحراسة الأغنام وحتى عشتار آلهة الحب التي كانت معنية بتنظيم أمور الزواج. ويرى شيخنا الأستاذ آية الله الشيخ الهرندي (دام ظله) إلى عدم استبعاد أن أصول هذه الديانات ـ وإن شابتها ممارسات وثنية ـ هي أصول سماوية، اختلطت بفكر الأرض، فكانت نتاج الممارسات اليومية للعقيدة الدينية التي تجنح إلى المحسوسات والملموسات، والالتصاق بواقع الإنسان المادي والبعد عن الغيبيات.

وعلى الرغم من كل ذلك فإن هذه الأديان الأرضية البشرية تطمح إلى ما تطمح إليه الأديان السماوية من بناء الإنسان بناء خلقياً متماسكاً فرداً أو جماعةً، والسموّ به إلى مستويات نبيلة نفسية أو عقلية، أو سلوكية. والمذاهب الفلسفية التي تنكرت للخالق ـ سبحانه ـ وتنكرت للأديان السماوية، وأنكرت حاجة الإنسان ـ مطلقاً ـ إلى الدين آلت إلى ما يشبه الدين بمنطلقاته وغيبياته، ومناهج تفكيره، وأساليب اقناعه، وطرائق العمل به، والتعبّد به. وربّما تكون الفلسفة الماركسية ـ وهي فلسفة مادية بحتة ـ من أشد الفلسفات رفضاً للدين، وإنكاراً لضرورته، بل وتقريراً لسلبيته في حياة الناس، إذ اعتبرته (افيون الشعوب) وفسّرته بأنه وسيلة تستخدمها الطبقات المستغلّة للسيطرة على الطبقات الفقيرة الكادحة. حتى هذه الفلسفة آلت في كثير من حالاتها، وتفسيراتها، وتوجهاتها وأساليبها إلى ما آل إليه أكثر الأديان غيبيّة، وانفصالاً عن الواقع. فعاشت ـ باسم العلم وادعائه، وباسم المادية الصرفة ـ بعيدة عن واقع الإنسان واضمحلت وهي متلفّعة بطوامير الغيبيات الفلسفية

التي هي أقرب للاوهام والتمنيات الموغلة في الغيبيات والاستحالات العقلية، بل أقرب من تلك الأفكار الغيبية التي تتمثّل بالأساطير، والتي نجدها عند المجتمعات البدائية، تصلح أن تكون دليلاً قائماً على فطرية الدين عند الإنسان، وعمق تأثيره في تفكيره، وسلوكه، وعلاقاته.

فالدين ـ على أي مستوى ـ لا يمكن أن ينفك عن وجود الإنسان وسعيه لبناء نظام حياتي يقوم على العدل والحرية والكرامة الإنسانية وربط الإنسان عنصراً متميزاً في هذا الكون الرحيب بخالق الكون الحكيم العليم.

إن دراسة الأديان وارتباطها بالإنسان، يكشف عن عمق العلاقة بينهما، وامتدادها التاريخي منذ أن وجد الإنسان على هذه الأرض إلى يومنا هذا. وقد تعرّض الدين إلى أزمات تبريرية وتفسيرية وتعليلية من قبل مذاهب فكرية، وتيارات فلسفية وخاصة في عصر النهضة الأوربية، وقيام حركات فكرية معادية للدين، وبروز دعوات فكرية إلى رفض الدين والتحلّل من مفاهيمه وقيمه وأخلاقياته، استناداً إلى تجارب حياتية للكنيسة المسيحية، مما ولّد ردود فعل انفعالية انعكست على النظرة إلى الدين. ولكن التقدّم العلمي، واستقرار المفاهيم، واعتدال المناهج، حتّم على الكثيرين اعادة النظر في مواقفهم وأحكامهم، بناءً على فهم واقعي جديد، ونظرة محايدة علمية، ما جعل الناس يعودون إلى تقويم مواقفهم، وأحكامهم ويراجعون أنفسهم مما عزّز موقف الدين وأنصاره، خاصة في أوساط المثقفين والمفكرين والعلماء، وبذلك استعاد الدين قوّته، وحيويته، وقدرته على التأثير، وبروزه قوة مؤثّرة في حياة الناس، وتنظيم علاقاتهم الاجتماعية، وبناء وعي اجتماعي فاعل يميز بين الحق والباطل، والحلال والحرام، والخطأ

والصواب. وهذا ما نكتشفه في المواقف الموضوعية المستندة إلى الحقائق العلمية، والتجارب الفكرية والخبرات الإنسانية .

إنّ الدين بمختلف مسمّياته يبدأ بالإيمان بتلك القوّة القادرة الحكيمة، وينتهي عند احقاق الحق في الدنيا وصولاً إلى الآخرة.

ما هو الدين؟

يلوح للباحث لأول وهلة أن الإجابة على هذا السؤال بسيطة. ولكنه إذا أراد أن يعرّف الدين تعريفاً عاماً يشمل كل الأديان، يختلط عليه الأمر.

تكمن الصعوبة في تعريف الدين، (تعريفاً جامعاً). فلكل دين نواحي خاصة به سواء في الشعور، أو الاعتقاد، أو في التعبد. فالأقوام البدائية تفهم الدين على وجه لا تفهمه الأقوام المتقدمة في الحضارة. فالدين حاجة إنسانية حسب المفهوم الشائع بأن الإنسان بحاجة إلى الدين ولو لم يكن موجوداً لاخترعه الإنسان، ولذلك اخترع الإنسان الآلهة وعبادة الأصنام وهو يعتقد أنه سيصل إلى الحقيقة لكن الله سبحانه وتعالى أرسل الأنبياء والرسل ليوصلوا الحقيقة إلى البشر.

وإذا أردنا أن يكون التعريف منطبقاً على جميع الأديان، تزداد الصعوبة. وذلك لأننا عندما نذكر كلمة الدين، تمر بذاكرتنا جميع الأديان البائدة منها والحاضرة، الأديان السماوية والمعتقدات الدينية الأخرى عند جميع الطوائف والشعوب على اختلاف معتقداتها، ونزعاتها، ومكانتها في سلم الحضارة. ومادام كل من هذه الطوائف والشعوب تختلف في مفهوم الدين عندها، لذلك يتعذر تعريفه بحيث ينطبق على جميع مفاهيم الأديان.

يفهم البعض من مصطلح الدين.. الأنظمة، والسيطرة، والتقاليد الموروثة. ويقصد به آخرون.. العبادة والطقوس. ويطلقه

ثالث.. على الإلهام والشعور. وفق هذا الاختلاف يدمج بعضهم الأساطير بمفهوم الدين، لأنهم وجدوا في الأساطير المختلفة شيئاً من فكرة الدين. وفي الحقيقة، تختلف الأساطير عن الدين، فمن الجائز أن فكرة الدين وجدت عند البشر قبل اختلاق الأساطير، وقد تكون وقائع تاريخية حرّفها البشر وزاد عليها وعظمها، وتكون رموزاً أخلاقية وعبراً. أما الدين، فهو الشعور الخفي الذي يجعل من يؤمن بشيء يعظمه ويرهبه..

الدين لغة:

وقبل التعرض إلى تعريف الدين لابد من استنطاق علماء اللغة في معنى الدين عندهم.

الدين بكسر الدال المهملة... والدِّين: الجزاء والمُكافأة. ودِنْتُه بفعلِه دَيْناً: جَزَيته، وقيل الدَّيْنُ المصدر، والدِّين الاسم... ودَايَنه مُداينةً ودِيَاناً كذلك أيضاً. ويومُ الدِّينِ: يومُ الجزاء. وفي المثل: كما تَدِينُ تُدان أي كما تُجازي تُجازَى أي تُجازَى بفعلك وبحسب ما عملت، وقيل: كما تَفْعَل يُفعَل بك. ودانَه دَيْناً أي جازاه. وقوله تعالى: ﴿إنا لمدينون﴾، أي مَجْزِيُّون مُحاسَبون، ومنه الدَّيَّانُ في صفة اللّه عز وجل. والدِّين الحسابُ: ومنه قوله تعالى: ﴿مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، وقيل: معناه مالك يوم الجزاء... والجمعُ الأديانُ. يقال: دَانَ بكذا دِيانة، وتَدَيَّنَ به فهو دَيِّنٌ ومُتَدَيِّنٌ... والدِّين: الإسلام، وقد دِنْتُ به. والدِّينُ: العادة والشأن، تقول العرب: ما زالَ ذلك دِيني ودَيْدَني أي عادتي...[1].

(1) ابن منظور: لسان العرب/ مادة (دين). والزبيدي: تاج العروس/ مادة (دين).

ونستنتج من ذلك.. أن لفظ الدين مشترك لفظي يستعمل في أكثر من معنىً، وهذا ناشيء من أن ما ذكرته القواميس اللغوية للدين من دلالات، إنما يكشف عن وجوه الاستعمالات المتشعبة لهذه الكلمة من دون بيان مفهومها الأصلي الذي انبثقت منه.

تعريف الدين:

إن الدين من المصطلحات المثيرة للجدل. ولذا لا تجد تعريفاً واضحاً وثابتاً له. فقد تعددت التعاريف حول هذا المصطلح، وتتصارع كل التعريفات على محاولة أشمل وأدق لحصر التعريف بحدود معينة. لكن في نهاية المطاف فإن مثل هذا الموضوع يخضع لاعتقادات الشخص وإيمانه. وبالنتيجة، فإنه يصعب وضع تعريف شامل يرضي الجميع. لذلك تجد من يعرّف الدين من منطلق إيماني، أو روحاني، أو يقيني، أو منطلق إلحادي، أو من منطلق عقلاني يحاول دراسة الدين كظاهرة اجتماعية أو نفسية أو فلسفية.

الدين في اصطلاحه القرآني

يأتي (الدين) في المصطلح القرآني بمعنى الحساب والجزاء والمكافأة.. كما في قوله تعالى: ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾[3]. وأيضاً يرد بمعنى الذل والانقياد والطاعة والعبادة

(1) سورة الفاتحة: الآية 4.

(2) سورة الحجر: الآية 35.

(3) سورة الذاريات: الآية 6.

والخضوع. ويرد بمعنى القضاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾[3].

ويأتي الدين بمعنى العبادة قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾[4]. وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا إِلَّا لِيَعْبُدُوا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾[5]. فالعبادة بحسب ما دلت عليه الآية المباركة داخلة في ماهية ومفهوم الدين.

ويرد بمعنى التشريع قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[6]. وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن

---

(1) سورة النحل: الآية 52.
(2) سورة يوسف: الآية 76.
(3) سورة التوبة: الآية 29.
(4) سورة الكافرون: الآيات 1 ـ 6.
(5) سورة البينة: الآية 5.
(6) سورة الشورى: الآية 13.

لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَنكُمْ فَاسْتَبِقُوا ٱلْخَيْرَاتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[1].

ويرد بمعنى الجماعة المؤمنة قال تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِينًا﴾[3]، إشارة إلى أن الدين عبارة عن نظام شامل متكامل من التعاليم والأقوال بمجموعها تشكل أساس تضامن الجماعة المؤمنة.

وهناك استعمالات أخرى متعددة ذكرها القرآن الكريم. وهي بحسب موارد استعمالاتها في الآيات المباركة.. دين خالص لله، والدين.. عبادة وطاعة، والدين.. إخلاص وتسليم كامل لله، والدين.. هداية، والدين.. أخوة، والدين.. علاقة بين الخالق والمخلوق..

الدين ـ حسب اصطلاح القرآن الكريم ـ هو الطريقة الإلهية العامة التي تشمل كل أبناء البشر في كل زمان ومكان، ولا تقبل أي تغيير وتحويل مع مرور الزمن وتطوّر الأجيال، ويجب على كل أبناء البشر إتباعها، وهي تُعرض على البشرية في كل أدوار التاريخ بنحو واحد دون ما تناقض وتباين، ولأجل ذلك نجد القرآن ـ الكريم ـ لا يستعمل لفظة الدين بصيغة الجمع مطلقاً، فلا يقول: (الأديان) وإنما يذكره بصيغة المفرد، كما يقول: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَامُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَاتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾

---

(1) سورة المائدة: الآية 48.
(2) سورة الشورى: الآية 13.
(3) سورة المائدة: الآية 3.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[1].

والدين كما يعرفه السيد الطباطبائي هو: (سلوك في الحياة الدنيا يتضمن صلاح الدنيا بما يوافق الكمال الأخروي، والحياة الدائمة الحقيقية عند الله سبحانه، فلا بد في الشريعة من قوانين تتعرض لحال المعاش على قدر الاحتياج)[2].

على ضوء هذا التعريف فإن الدين: حالة تنظيمية لحياة الإنسان الفرد، والمجتمع على حسب ما فيه كمال وجوده الدنيوي المرتبط بالآخرة، التي هي الحياة الحقيقية..

الدين في تصوره الإسلامي

من خلال قراءتنا وبحثنا عن مفهوم الدين نجد أن ما قُدّم من تعريفات للدين (لا يعدو كونها مؤطراً بإطار خاص ينسجم مع أنظار الباحثين في مجال أبحاثهم الاختصاصية)[3].

ويفترض الباحث.. أن الباحث في الأديان مثلاً حين يقوم بدراسة الظاهرة الدينية في بعدها النفسي والخارجي، لا يعنيه ما تختزنه هذه الظاهرة من حق أو باطل، طالما أن الدين،كظاهرة نفسية أو اجتماعية، لا يقتصر على ما هو حق بالضرورة. بل ينصرف بنحو كلي عن إطلاق أحكام من قبيل (الحق/ الباطل،

---

(1) الشيخ جعفر سبحاني: معنى الدِين وما المقصود به/ الموقع الإلكتروني www.islam4u.com

(2) السيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن/ 2، 130.

(3) الشيخ حسن بدران: الدين في التصورات الإسلامية والمسيحية/ ماهية الدين ـ مقاربة إسلامية، 11، الناشر: دار المعارف الحكمية، 2010م..

الصواب/ الخطأ). ويكاد يحصر نشاطه في المجال التوصيفي للظاهرة الدينية المنظورة في نطاق بعدها التاريخي والنفسي..[1].

وعلى ضوء ذلك يدخل في الاعتبار كل الأديان، وهذا الإطلاق لكلمة الدين ينسجم مع المعنى اللغوي كما ينسجم مع المعنى الاستعمالي الوارد في القرآن الكريم ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[2].

ولأجل اختلاف أنظار الباحثين في الدين ـ كما أسلفنا ـ عرفه التهانوي بانه: (وضع إلهي سابق لذوي العقول السليمة باختيارهم إياه إلى الصلاح في الحال والفلاح في المآل)[3].

وعرفه الجرجاني بأنه: (وضع إلهي يدعو أصحاب العقول إلى قبول ما هو عند الرسول)[4].

وعرّفه ريفيل في (مقدمة تاريخ الأديان) بأنه: (توجيه الإنسان لسلوكه وفقاً لشعوره بصلة بين روحه وبين روح خفية، يعترف لها بالسلطان عليه وعلى سائر العالم، ويطيب له أن يشعر باتصال بها). كما عرفه دوركهايم في مقاله (الحياة الدينية في أشكالها الأولية بأنه: (منظومة متماسكة من الاعتقادات والأعمال المتعلقة بالأشياء المقدسة، اعتقادات وأعمال تضم أتباعها في وحدة معنوية تسمى الملة)[5].

---

(1) الشيخ حسن بدران: الدين في التصورات الإسلامية والمسيحية/ ماهية الدين ـ مقاربة إسلامية، 11 ـ 12.

(2) سورة الكافرون: الآية 6.

(3) التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون/ 503.

(4) الجرجاني: التعريفات/ 94.

(5) انظر للتعريفين المتقدمين الشيخ حسن بدران: الدين في التصورات الإسلامية المسيحية/ ماهية الدين ـ مقاربة إسلامية، 13.

ولكن التعريفين[1]، لم يقتصرا على الدين الصحيح فحسب. لأن التعريف الأول ناظر إلى البعد النفسي في الظاهرة الدينية. وينظر التعريف الثاني إلى البعد الاجتماعي فيها. وهما يعرفان الدين بصفته حقيقة نفسية أو خارجية ليس من شأنها أن تتصف أو تقتصر على ما هو حق وصحيح في ذاته بالضرورة..[2].

وعلى ضوء ما تقدم.. نجد أن الدين يدعو الإنسان إلى الانقياد والارتباط. ولابد من تمييز الارتباط الديني عن غيره وذلك بالانتماء الكلي والالتزام القلبي. فالدين دعوة واسعة وشاملة، لا يمكن الاستجابة لها في جانب دون جانب. فهو منظومة شاملة ومترابطة فالأخلاق ترتبط بالمعاملات، والعبادات مرتبطة بالأخلاق لأن الصلاة مثلاً (تنهى عن الفحشاء والمنكر) وبذلك تترابط شروط الدين، فالصدق واجب ديني، وأداء الآمانات واجب ديني. وهكذا تتشكل منظومة أخلاقية ترتبط بالإيمان والعبادات والمعاملات. وحينئذٍ يكون الإنسان معنياً ببناء علاقة تفاعلية شاملة مع الدين عقلاً وروحاً وعملاً. (فمن خلال العقل يقبل الإنسان بهذا الإلتزام الديني، ومن خلال القلب يرسخ هذا الالتزام، وهذا الالتزام يستدعي من الإنسان العمل بكل جوارحه بكل ما يلزم).

الدين في تصوره المسيحي:

يعرّف الدكتور جورج صبرا الدين ـ على أساس اختصاصه اللاهوتي المسيحي النظامي ـ بأنه: (التعاطي البشري مع واقع مقدس).. وبعد أن يقدّم شرحاً وافياً لمفردات التعريف المذكور يرى:

---

(1) تعريف ريفيل ودوركهايم.

(2) لاحظ لذلك مفصلاً الشيخ حسن بدران: الدين في التصورات الإسلامية المسيحية/ ماهية الدين ـ مقاربة إسلامية، 12 ـ 13.

إن الدين في المسيحية: علاقة خلاصية بين الإنسان والله، لكن هذا لا يعني أن الدين مجرد أداة للخلاص من الخطيئة الأصلية. لأن الخلاص في المفهوم المسيحي هو استعادة للعلاقة الصحيحة بين الله والإنسان. فالله يكشف ذاته ويمنح ذاته للبشرية المبتعدة عنه ليردم الهوة بينه وبين الإنسان الذي تنكر لخالقه، ونصّب نفسه إلهاً مكانه. وعندما يتحرر الإنسان من الخطيئة، أي من اعتبار ذاته أو أي مخلوق آخر، مركز الوجود والحياة والقرار النهائي، عندها يخلص، أي يستعيد العلاقة الصحيحة مع الله، فتستقيم عندها علاقته مع ذاته ومع سائر البشر. التحرر من الخطيئة إذاً، عملية إلهية في منشئها لكنها تمارس وتعاش ليس فقط فردياً بين الإنسان والله، بل بين الإنسان وأخيه الإنسان في الحياة المشتركة على الأرض...[1].

ويرى الدكتور وجيه قانصو في بحثه (ما هو الدين): أن لا اختلافاً في معنى الدين بين المسيحية والإسلام.. إلا أن الفارق بينهما، هو أن مصطلح (الدين) قد استعمل في الإسلام منذ البداية التأسيسية له، في حين أن اللفظ الدال على الدين مباشرة لم يستعمل في الإنجيل ولم يرد في عبارات الآباء المؤسسين. حيث استعملت عبارات مرادفة لمعنى الدين: كالإيمان والناموس والطريق، وقانون الإيمان...

ويصل في نهاية بحثه إلى أنه: لم ينشىء أي من الدينين الإسلامي والمسيحي معنى خاصاً للدين، بل كلاهما استعمل المعنى المرتكز والمتداول قبل تشكل الخطاب الديني. فلم نحصل

(1) لاحظ مفصلاً الدكتور جورج صبرا: الدين في التصورات الإسلامية المسيحية/ ما هو الدين؟ مقاربة مسيحية، 19 ـ 26.

على تعريف للدين من قبل الأديان. غاية الأمر فإن تعريفه هو أنه: دين الحق، والخلاص، والنجاة. أي إعطائه صفة زائدة على حقيقة الدين التي تمكنه من أداء وظيفة خلاصية، أو تحررية، وتهبه أرجحية وسيادة على باقي الأديان...[1].

وهناك من يرى.. إن الدين منظومة تتكون من التصورات والمعتقدات الدينية (الأسطورية) الخيالية بالإضافة إلى عنصر الأمزجة والانفعالات النفسية والعاطفية، وكذا الممارسات العملية التي تتجلى في شكل الطقوس والشعائر الدينية التي يقوم بها الإنسان المتدين تجاه الدين الذي يعتقد فيه كعنصر ثالث.

وينظر علماء الاجتماع إلى الدين على أنه: مجموعة مجردة من القيم والمثل أو الخبرات التي تتطور ضمن المنظومة الثقافية للجماعة البشرية.. ولا يشير جوهر الدين إلى الاعتقاد بـ (الله تعالى) أو متعال مطلق، جوهره يعرف بأنه: بنية أو ثقافة مباشرة أو بنية لغوية للحياة بشكل كامل، والاعتقاد بأنه، يسمح بوصف الواقع، وصياغة واختبار المعتقدات والمشاعر والأحاسيس الحميمة .وبموجب هذا فإن الدين هو رؤية لا غنى عنها في العالم تحكم الأفكار الشخصية والأعمال[2].

ولكن علماء الأديان يرون أنه: لا يمكن اختصار الدين بما ذهب إليه علماء الاجتماع من اختصار الدين بمظاهره الاجتماعية والثقافية الجماعية التي لا تشكل مظاهر ناتجة عن الدين وليست الدين أساساً. فالدين بالنسبة لهم هو الوعي والإدراك للمقدس. وهو

---

(1) لاحظ مفصلاً الدكتور وجيه قانصو: الدين في التصورات الإسلامية المسيحية/ ما هو الدين؟ 47 ـ 59.

(2) انظر الموسوعة الحرة: www.wikipedia.com

إحساس بأن الوجود والعالم تمّ إيجادهما بشكل غير طبيعي عن طريق ذات ـ فوق طبيعية ـ تدعى الإله، أو الخالق، أو الرب..

ويرى شيخنا الأستاذ آية الله الشيخ مصطفى الهرندي (دام ظله):

إن (الدين) لفظة بسيطة. لكنها تنطوي على معانٍ كثيرة عميقة لا حصر لها، ولا سَبْرَ لغورها. فالدين هو: عقيدة فكريّة ثابتة فاعلة. والدين هو مشاعر وأحاسيس إنسانية ايجابية. والدين هو سلوك اجتماعي سليم بنّاء يقود إلى الخير والصلاح والإصلاح. والدين هو نظام حياتي يقوم على فلسفة حياة كريمة سليمة. والدين هو نمط من التفكير والسلوك والتعبير عن النفس الإنسانية التي تتعامل مع ما حولها، وتتكامل مع سنن الكون والحياة. والدين هو علاقة المخلوق بالخالق، والمخلوق بالمخلوق، والحيّ مع الأحياء والجماد. والدين هو إبداع خاص في طريق عام يتّضح فيه عظمة الخالق، ورهافة المخلوق. والدين هو القيم الإنسانية، والفضائل الإلهية التي يؤدّي الالتزام بها إلى الأمن والسلام، والتآلف والتكاتف، والتعاون و التكافل، والاندماج في المشاعر الإنسانية الكريمة والتكامل في طرائق التفكير ما يؤدّي إلى وحدة المجتمع، بالتعارف والتفاهم، والرغبة في تطوير الحياة، وفتح منافذ جديدة عليها. كلُّ ذلك وغيره يعنيه الدين بمعناه الواسع العميق..

وبعد هذا العرض المتقدم.. لم نجد هناك اجماعاً موحداً لتعريف (الدين) على الرغم من كثرة تداول الكلمة ووجود معناها كحقيقة موضوعية في وعي وسلوك وعلاقات الناس، وعدم الاجماع والاتفاق هذا ناتج من صعوبة فصل تعريف الدين عن تحليله وعن زاوية النظر إليه ـ كما أسلفنا القول ـ

ومن مجموع ما تقدم نجد أن.. الدين حالة قلبية.. شعور وإحساس باطني بالغيب.. وإدراك مبهم، لكن مع إبهامه فإنه شديد الوضوح والاعتراف بأن هناك قوة خفية حكيمة مهيمنة عليا تدبر كل شيء.

الدين إحساس تام قاهر بأن هناك ذاتاً عليا. وهذا الإحساس يورث الرهبة والتقوى والورع، ويدفع إلى مراجعة النفس ويحفز صاحبه لأن يبدع من حياته شيئا ذا قيمة ويصوغ من نفسه وجوداً أرقى في كل لحظة متحسباً لليوم الذي يلاقي فيه ذلك العظيم.. مالك الملك.

إن العمدة في مسألة الدين والتدين هي الحالة القلبية. ماذا يشغل القلب؟ وماذا يجول بالخاطر؟ وما الحب الغالب على المشاعر؟ وماذا يختار القلب في اللحظة الحاسمة؟ وإلى أي كفة يميل الهوى؟

تلك هي المؤشرات التي سوف تدل على الدين.. وهي أكثر دلالة من الصلاة الشكلية، ولهذا قال القرآن. ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[1]، أي أن الذكر أكبر من الصلاة، برغم أهمية الصلاة وأنها معراج المؤمن. وبهذا الذي وقر في قلب كل منّا سوف نتفاضل به يوم القيامة بأكثر مما نتفاضل بصلاة أو صيام. فالصلاة تكون صلاة بسبب هذا الشيء الذي في القلب. وتكتسب الصلاة أهميتها القصوى في قدرتها على تصفية القلب وجمع الهمة وتحشيد الفكر وتركيز المشاعر. وكثرة الصلاة تفتح هذه العين الداخلية وتوسع هذا النهر الباطني، وهي الجمعية الوجودية مع الله التي تعبر عن الدين بأكثر مما يعبر أي فعل.

---

(1) سورة العنكبوت: الآية 45.

الدين منهج حياة متكامل، يصل الدنيا بالآخرة، ليصبح عمل المؤمن الصادق كلُّه عبادةً صادقةً لله، أكلُه وشربُه وسعيُه، وجهادُه، ورضاه وغضبُه، وحبُّه وكراهيتُه، وعلمُه، وعملُه، كلُّه عبادةً خالصةً لله إذا صدقتْ النيَّة لله، وإذا خضع العمل كلّه لشرع الله.

ويقول هيغل عن الدين.. (الدين هو العلاقة مع المطلق بصورة المشاعر، والتمثل والايمان، وفي قلبه الذي يحتوي كل شيئ)[1].

لقد اهتم الفيلسوف الألماني بالدين والدولة، كما اهتم بالروح باعتبارها محركاً لكثير من النشاطات الإنسانية. يقول في كتابه فلسفة الحق: (لايمكن تحديد ماهية العلاقة بين الدين والدولة إلا إذا استرجعنا الفكرة الشاملة للدين. فمضمون الدين هو الحق المطلق. وبالتالي فالدين هو أعلى المشاعر جلالاً. وهو بما إنه معرفة تمثلية، ووجدان، وحدس، فإن مهمته هي التركيز على الله بوصفه المبدأ غير المحدود، والعلة التي يعتمد عليها كل شيئ آخر، وهذا يعني أن كل شيئٍ آخر لابد أن يُرى من هذه الزاوية، ويعتمد عليها لدعمه، ومساندته، وتبريره، والتحقق من صحته، وارتباط الدولة والقوانين والواجبات بالدين على هذا النحو يكسبها جميعاً - أمام الوعي - التاكيد الأسمى والإلتزام الاعلى..)[2].

الدين.. نجاةٌ في الدنيا والآخرة. بدونه يصبح الناسُ وحوشاً، يفتك بعضهم ببعض، ويهلك بعضهم بعضاً. لا تقوم بينهم عدالة ولا

---

(1) أريك وايلي: هيجل والدولة/ 55، ترجمة: نخلة فريفر، المكتبة الهيجلة، رقم13، دار التنوير، ط3، 2007م.

(2) هيجل: أصول فلسفة الحق/ 2، 160، ترجمة وتقديم وتعليق: الدكتور إمام عبد الفتاح إمام، المكتبة الهيجلية، رقم5.

أمانة، ولا حرية ولا مساواة، إلا من حيث شعارات يطلقها المجرمون الوحوش، ليزيّنوا بها باطلهم، وليفتحوا بها ثروات الأمم لينهبوها، وليستأثر المجرمون الوحوش بخيراتها، ويدعوا الناس فقراء عالة عليهم.

لقد خلق الإنسان قبل الأفكار، واستطاع بفرضية الحياة والتعايش الطبيعي داخل الأطر المادية للحياة أن يكتسب الفكر ويتناول الرؤية للأشياء ويموضعها داخل قالب التفسير المادي للحياة، وبذلك بدأت لدى الإنسان نزعة التقدير والتقرير والتفسير لجملة أسماء طرأت على واقع حياته التي يحياها على الأرض ولا يملك خلفية فكرية موضوعية مادية عنها.

لقد بدأ الإيمان بالعالم يسري في الجسد البشري ويحقق لمشيئاته فبرزت حاجته الماسة للتكوين العقلاني للسؤال. ولذا نحاول أن نتعرف على الدين من خلال وصفه بانه ظاهرة اجتماعية وتأريخية. ولهذا نحتاج لفهم وإيجاد أطر تحمله وتجمله لينشأ هنا امتحان الإرادة الحرة التي تريد أن تفسر وتعرف وتفهم وتؤسس لمعطيات تأخذ بركاب الفكر البشري إلى مصاف الإيمان بالعمل والعمل بالإيمان...

(يمكن تحديد الديانة في ذاتها بأنها: مجموع الواجبات التي تترتب على علاقة الإنسان بالله، وبين الاثنين أربع علاقات، كل منها ينتج واجباً خاصاً.

1 - العلاقة الاولى: أن الله خلق الإنسان فهو إذن السيد والمولى، وبينه وبين الإنسان علاقة السيد بالخادم. ويترتب على ذلك أن يعترف الإنسان بسيادة الله عليه، ويسمى هذا الواجب (واجب العبادة).

2 - العلاقة الثانية: أن الله يحفظ الإنسان ويعينه في أعماله، فكل ما للإنسان من خير فهو مدين به لله، وتكون بين الله والإنسان إذن علاقة المحسن بالمحسن إليه، ويترتب على ذلك واجب ثان، ألا وهو أن يحب الإنسان الله، وأن يشكره، ويسمى هذا الواجب (واجب الشكر).

3 - أما العلاقة الثالثة: أن الله يدبر الإنسان لأنه هو مصدر الحياة، وبه يوجد ويتحرك، فبين الله والإنسان إذن علاقة الغني بالفقير، ويترتب على ذلك أن يطلب الإنسان من الله ما هو بحاجة إليه من الخيرات، ويسمى هذا الواجب (واجب الطاعة).

4 - وأخيراً، أن الإنسان يخطئ في حق الله غالباً، ولا يجوز أن يدع الله الإنسان حراً في أن يخطئ من غير عقاب ولا حساب بعد بيان قيام الحجة كاملة وبيانها. فبين الله والإنسان بسبب ذلك علاقة القاضي بالمذنب، ويترتب على ذلك أن يستعطف الإنسان عدالة الله، وأن يلتمس رحمته ويسمى هذا الواجب (واجب الاستغفار والتوبة)[1].

هذه هي الواجبات الأربعة المترتبة على العلاقة بين الله والإنسان، وهذه الواجبات موجودة بذاتها، أي أنها غير متوقفة على قبول الإنسان لها، ومنها تتألف الديانة.

أما الديانة، في كل منا فيمكن تعريفها: (بأنها قبول الإنسان للواجبات المفروضة عليه لله قبولاً فعلياً).

يقول سماحة آية الله العظمى الشيخ محمد أمين زين الدين (رحمه الله) إن:

---

(1) كلام عن الأديان: الموقع الألكتروني/ www.alkalema.net.

(الدين قانون كوني كهذه القوانين الكونية الثابتة المحتومة، التي لا تتخلف ولا تختلف، والتي تحكم الأشياء وتصرفها إلى غاياتها.. قانون كوني ثابت كهذه القوانين الكونية الثابتة، يحتم وجوده ما يحتم وجود هذه القوانين من حكمة، ويفرض ثباته ما يفرض ثباتها من إتقان تدبير، ودقة تقدير.

ومصدره هي ذات الحكمة المبدعة التي وضعت قوانين الكون لكل ما فيه من صغير وكبير، وحي جامد، وعينت لجميع الأشياء طرائقها وآتتها هداها.

ومجالاته هي المجالات الاختيارية للإنسان.. العقائدية منها والعملية...، والأفعال والمعاملات التي يأتيها أو يتركها بإرادته والغايات والأشواق التي يقبل نحوها أو ينصرف عنها بطوعه، والأخلاق والصفات التي يكتسبها أو يتجنبها باختياره، والصلات والروابط التي يبرمها أو ينقضها برغبته، والتقاليد والعادات التي يتمسك بها أو يتجافى عنها بترجيحه ـ لم يخلو مجتمع من دين. سواء المجتمعات البدائية أو الحديثة. وكانت بلاد الشرق قد شهدت عدداً كبيراً من الأديان البدائية، لكن المنظومات الأخلاقية كانت متشابهة تقريباً فيما بينها ـ يقول هيغل في كتابه (العالم الشرقي) وهو يبحث في أديان الصين وبلاد الرافدين ومصر الفرعونية والهند وبلاد فارس: (إن الدين عندنا هو العمق الداخلي للروح في ذاتها بأن تتصور الروح نفسها في ذاتها، أي في أعمق أعماق جوهرها)[1].

ويناقش هيغل محتويات تلك الأديان في تلك المجتمعات مثل الزرادشتية والبوذية وغيرها، لكن الحديث عن الدين يرتبط

(1) هيجل: العالم الشرقي/ 85، محاضرات في فلسفة التاريخ، ترجمة وتقديم وتعليق: الدكتور إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة الفقيه.

بمجموعة من الظواهر مثل النور والروح والأخلاق وأنظمة العائلة ـ ونشاط الدين في المجالات العقائدية هو.. أن يوجّه الإنسان للعقيدة الصحيحة فيشرح له مفهومها شرحاً كاملاً، ويبسط له دلائلها وشواهدها بسطاً وافياً، حتى لا تبقى له لوثة في مفهوم، ولا شبهة في دليل، وحتى يؤمن بالعقيدة أو يجحد بها وهو تام الاختيار تام الإرادة ـ حتى يكون العقاب والثواب منطقياً ومشروعاً فالله تعالى يقول: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[1] فالإرادة البشرية في موضوع الإيمان متوفرة استناداً لعق الإنسان وتقديره للخطأ والصواب لأن الإنسان كائن عاقل والعقل مسؤول عن الأفعال، ولذلك نقرأ كثيراً من الآيات القرآنية وهي تختتم بـ ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ في إشارة إلى أهمية العقل عند الإنسان المخلوق. فالمعنى هو أن الإنسان يحيا عن بينة ويهلك عن بينة ـ أما نشاطه في المجالات العملية فهو أن يتعهد كل أولئك النواحي المختلفة بالتقويم والتهذيب، ويتولاها بالرعاية، ويشرّع لها من الأحكام ما يوجّه الإنسان إلى الحياة الفضلى، ويبلغ به غايته الكبرى.

إن حدود الدين هي حدود الإنسانية من هذه الأرض. فلا اختصاص له بجنس، ولا امتياز فيه للون، ولا تقدم لعنصر. أليست جميع أفراد الإنسان قد أعدّت (في تكوينها) لهذه الغاية، ووجهت نحو هذا السبيل؟ ثم أليس إعدادها كافة لهذا الأمر على حد سواء؟ ـ ولذلك فإن الله الذي خلق البشر مختلفين ساواهم في قيمتهم الإنسانية فلم يفرق بين إنسان وآخر على أساس اللون أو العرق أو المنزلة الإجتماعية أو الغنى والفقر أو القوة والضعف وإنما جعلهم

(1) سورة الكهف: الآية 29.

متساوين بكل ذلك وجعل مصدر التباين الوحيد والأساسي هو التقوى، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾[1]، أي الإلتزام بحدود الله التي تضمن أخلاقية العيش الكريم في الدنيا والفوز برضا الله في الآخرة ـ إن قوانين الله التي ملأت رحاب هذا الكون لا تعرف التحيّز والمحاباة، والدين أحد هذه القوانين ـ كما قلت ـ، فهو لا يعرف التحيز والمحاباة كذلك.

أما منهج التشريع في الدين فلابد وأن يكون هو العدل.. هو توفية كل ناحية ما تستوجب دون زيادة أو نقص، ودون حيف أو ميل على ما تستحقه أي ناحية أخرى. وأقول: لابد وأن يكون هذا منهج التشريع في الدين، لأنه هو المنهج العام لقوانين الله في الكون، والعلم التجريبي الحديث هو الشاهد المصدّق على ذلك)[2].

وفي نهاية المطاف نقول..

إن الدين من حيث الواقع والحقيقة والعقل هو.. الحقيقة الكاملة لهذا الكون كلّه، مشهدِه وغيبِه، دنياه وآخرتِه، خلقِه كله، خالقُه الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة، خالق كل شيء، له الملك كله، وله الأمر كله وله الحمد كله. من هنا يُصبح الدّين رسالةَ الأنبياء والرُّسل على مرِّ الزمن، خُتموا كلُّهم برسول الله محمد ﷺ، وخُتمت الرسالات السماوية بالقرآن الكريم، ليكون المنهج لحياة الإنسان ودستوره العام للبشرية.

ومن خلال هذا المنهج الرَّباني المتكامل يبيّن الله عز وجل

---

(1) سورة الحجرات: الآية 13.

(2) آية الله الشيخ محمد أمين زين الدين: رسالات السماء/ 42 ـ 44.

للبشرية مهمّة الإنسان في هذه الحياة الدنيا، المهمّة التي خلقه الله لأجلها ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1]، ولتكون الخلافة الربانية للإنسان جزءاً رئيساً من هذا الدين العظيم، ليعرف كلُّ إنسان أنَّ الله سبحانه وتعالى هو الذي خلقه، وهو الذي كلَّفه بمُهمَّةٍ عظيمةٍ - مهمة الاستخلاف - يقوم بها في الدنيا من خلال ابتلاءٍ وتمحيص، ومن خلال عهدٍ وميثاقٍ، فيكون الطريق أمام الإنسان في هذه الحياة الدنيا مشرقاً جليّاً، يمضي المؤمنون بذلك على صراط مستقيم واحد، ممتدٌّ إلى الدار الآخرة. لذلك يعيش المؤمن في هذه الحياة الدنيا مطمئنّاً راضياً، واعياً لمهمته وتكاليفه الربَّانيَّة التي سيحاسَب عليها يوم القيامة بين يدي الله، يوم يضع الموازين القسط فلا تظلم نفسٌ شيئاً، ثمَّ يمضي الإنسان إما إلى جنَّة أو إلى نار.

هذا هو الدين الحق الذي يبيّن للإنسان كلَّ ما يحتاجه حتى ينجو من فتنة الدنيا ومن عذاب الآخرة.

نعم! هذا هو الدين الذي جعله الله رحمةً منه لعباده، وفضلاً منه عليهم، وهدى ونوراً. فلا تجد فيه تناقضاً بل تماسكاً، وتجده ميسَّراً سهلاً سمحاً..

الأديان السماوية والبشرية:

تنقسم الأديان المعاصرة إلى قسمين:

الأول: الأديان السماوية

وهي الأديان التي ثبتّ أن المبشرين بها مبعوثون من قبل الله

(1) سورة البقرة: الآية 30.

تبارك وتعالى، والكتب التي تتبناها كتب إلهية منسوبة إلى السماء من طريق الوحي، أو الإلهام، أو الطرق الأخرى التي يتم بها ارتباط الرسالات الأرضية بالله تبارك وتعالى.

الثاني: الأديان البشرية ـ الإنسانية ـ

وهي الأديان التي لم يثبت ارتباطها بالله تبارك وتعالى، وهي أديان تحتل رقعة كبيرة من الكرة الأرضية، كالبوذية المنتشرة في أطراف الصين ودول شرق آسيا، والكنفوشية المنتشرة في الصين، والهندوسية والسيخية المنتشرتان في الهند، وغيرها.

ويميل أستاذنا آية الله الشيخ مصطفى الهرندي (دام ظله)، إلى: أن هذه الأديان ـ غير السماوية ـ أيضاً لها جذور إلهية لكن لقدمها ومرور الأزمان عليها تحولت إلى أديان إنسانية. فنحن نعتقد ـ كما يقول ـ أن سيدنا آدم عليه السلام بحسب ما تذكره بعض النصوص نزل في الهند، ولا شك أنه عليه السلام كان له كتاب سماوي وشريعة، لأن الخلافة في الأرض ـ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]، ـ لا تتم من دون شريعة، فإن خليفة الله تبارك وتعالى في الأرض ينفذ الإرادة الإلهية في الأرض، وتنفيذها لا يكون إلا من خلال الشرائع المنزّلة من قبل الله عزّ وجل.

فالأديان التي اصطلحنا عليها بـ (الأديان الإنسانية) يحتمل رجوع أصولها إلى شريعة آدم عليه السلام. فتكون جذورها من نفس الأديان التي نزلت في تلك المرحلة على آدم عليه السلام وعلى أولاده وعلى

---

(1) سورة البقرة: الآية 30.

الأنبياء (عليهم وعلى نبينا آلاف التحية والثناء)، الذين عاشوا تلك المرحلة. ثم تحولت وانحرفت بمرور الزمان عن حقيقتها لتظهر بصورة الأديان الوثنية. ونحن لا نشك في أن الديانات الأولى شهدت حالة من التحريف أكثر من الديانات المتأخرة. لكنها بقيت مع هذا التحريف تضم منظومات أخلاقية تخص العلاقة بين الأفراد والعلاقات الأسرية والأمانة والصدق وتحريم الزنا والقتل والسرقة وغير ذلك مما جاءت به الأديان السماوية من أجل تنظيم المجتمعات ونبذ العنف والإلتزام بالقوانين والأحكام من أجل سلامة المواطنين والحفاظ على ممتلكاتهم وأمنهم وحقوقهم.

وإذا أمكننا دراسة النصوص لتلك الأديان بدقة متناهية لأمكن استخراج كثير من المشتركات الموجودة بين الكتب السماوية المقدسة الحقيقية وبين تلك الكتب المقدسة عند أصحاب الديانات الإنسانية كالبوذية والكنفوشية والهندوسية والسيخية وغيرها من الديانات والمذاهب المتشعبة.

وفي الشرائع السماوية.. هناك شرائع معروفة بقيت إلى زماننا هذا ومن أهمها:

1: الشريعة التي جاء بها سيدنا موسى عليه السلام.

2: الشريعة التي جاء بها سيدنا عيسى عليه السلام.

3: آخر تلك الشرائع هي التي جاء بها خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله.

وهذه الشرائع الثلاث ـ كلها ـ تجمعها شريعة سيدنا إبراهيم عليه السلام.
ونقسم هذه الأديان والشرائع السماوية المعاصرة إلى ثلاثة أقسام:

أ: الشريعة الموسوية.. والتي اصطلح على تسميتها بـ (اليهودية) والتي تنسب إلى موسى تارة وإلى يهودا تارة أخرى.

ب: الشريعة العيسوية أو المسيحية أو النصرانية.. والتي تنسب إلى سيدنا عيسى عليه السلام.

ج: الشريعة المحمدية.. وهي والتي تنسب إلى سيدنا محمد ﷺ.

ولسيدنا موسى عليه السلام كتاب سماوي خاص وقد صرح به القرآن الكريم وعنونه بـ (التوراة)، كما ولسيدنا عيسى عليه السلام كتاب سماوي خاص وقد صرح به القرآن الكريم أيضاً وعنونه بـ (الإنجيل)، ثم لسيدنا ونبينا محمد ﷺ كتاب خاص وهو (القرآن الكريم).

ومن هنا يفرض السؤال نفسه وهو:

هل أن هذه الشرائع الثلاث مختلفة كما تدل عليه التسمية، أو أنها متفقة ولكن تسميتها بهذه الأسماء الثلاثة تسمية بشرية، وذلك لأجل التفريق بين هذه الشرائع الثلاث؟

يقول شيخنا الأستاذ آية الله الشيخ الهرندي (دام ظله):

إذا حاولنا دراسة هذا البحث على ضوء كتب الأديان، أو على ضوء المصطلحات الجديدة نتوصل إلى قناعة وهي:

أن الشرائع الثلاث متنوعة فكل شريعة تختلف عن الشريعة الأخرى.

أما إذا حاولنا دراسة البحث على ضوء القرآن الكريم، بأن نستفرغ أذهاننا من بحوث متكدسة ونحكّم الكتاب الكريم في هذه القضية فقد تتغير هذه القناعة ويثبت لنا أن الشرائع السماوية كلها شريعة واحدة، ولا اختلاف بينها بدءً من شريعة آدم عليه السلام إلى شريعة نبينا محمد ﷺ، وأنها يمكن تسميتها بالإسلام ولكن مع الفوارق الموجودة بين هذه الشرائع.

وعندما نتمعن في آيات الكتاب الكريم نجد أن الكتاب العزيز

يطلق الإسلام على كل هذه الشرائع السماوية التي وردت فيه ولنستعرض بعض تلك الايات المباركة.

1. ورد على لسان نبي الله نوح عليه السلام والذي هو أقدم أنبياء الله تبارك وتعالى قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[1].

2. في خطاب سيدنا إبراهيم عليه السلام يقول تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2].

3. ثم يوصي سيدنا إبراهيم عليه السلام بنيه بالإسلام لله تبارك وتعالى فيقول تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[3].

4. نبي الله يعقوب عليه السلام يوصي بها بنيه أيضاً فيقول تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[4].

5. يخاطب نبي الله موسى عليه السلام قومه فيقول تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾[5].

6. الحواريون يقولون لسيدنا عيسى عليه السلام بأنهم مسلمون، قال

---

(1) سورة يونس: الآية 72.
(2) سورة البقرة: الأيتان 130 و 131.
(3) سورة البقرة: الآية 132.
(4) سورة البقرة: الآية 133.
(5) سورة يونس: الآية 84.

تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(1).

7. وفريق من أهل الكتاب عندما استمعوا للقرآن قالوا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾(2).

8. ثم نرى أن القرآن الكريم يجمع كل هذه الأمور في قضية واحدة ويخاطب بها قوم الرسول ﷺ ويبين لهم أنه لم يشرّع لهم شيئاً جديداً وأن ما جاء به هو دين الأنبياء فيقول تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾(3).

9. ثم يخاطب المسلمين عندما طلب منه أصحاب الديانات الأخرى متابعة أديانهم قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾(4).

ونحن بحسب قراءتنا لهذه الآيات المباركات وغيرها نستفيد:

أن دين الله تبارك وتعالى واحد في جميع العصور. وأن الفوارق المطروحة ليست فوارق حقيقية، بل ترجع إلى جذور تلك

(1) سورة آل عمران: الآية 52.
(2) سورة القصص: الآيتان 52 و 53.
(3) سورة الشورى: الآية 13.
(4) سورة البقرة: الآيتان 135 و 136.

الأديان حيث إن كل الأديان الإلهية يمكن تسميتها بالإسلام ابتداءً من سيدنا آدم عليه السلام وانتهاءً بسيدنا الرسول محمد ﷺ.

إذن ما اصطلح عليه الباحثون من تقسيم الشرائع أو الأديان إلى ثلاثة أقسام: (موسوية وعيسوية ومحمدية) إما: أن يكون لأجل التفريق بين هذه الرسالات الثلاث حيث إن لكل رسالة خصائص معينة، وإما: أن يكون ناشئاً من عدم التدقيق في الكتاب الكريم، وعدم القراءة المتأنية والصحيحة لآيات الكتاب العزيز، وإلا فكل الأديان هي الإسلام.

وإذا تمكنا، من إثبات هذه النقطة بأن اليهودي مسلم والمسيحي كذلك مسلم ومن يتبع الشرائع السماوية والشرائع السابقة المتقدمة التي تشغل حيزاً صغيراً في داخل الجغرافية الأرضية وأن كل هؤلاء مسلمون، فحينئذٍ تذوب الفوارق الطائفية والعصبية والقومية. وحينها نتمكن من إيجاد لغة مشتركة بين كل الأديان.

وما نقوله، يتجاوز حدود الديانة الإبراهيمية لأن هناك مؤتمرات عقدت في العالم تحت عنوان: (مؤتمرات الأديان) كان موضوعها إرجاع الديانات أو الشرائع الثلاث إلى الديانة الإبراهيمية، ولكن ما نطرحه أوسع من ذلك، فإننا نرى أن جميع شرائع الله تبارك وتعالى هي إسلامية فلا فرق بين شريعة سيدنا موسى عليه السلام وبين شريعة سيدنا عيسى عليه السلام الصحيحة وبين شريعة رسولنا الكريم محمد ﷺ.

لذا نجد أن الله تبارك وتعالى يخاطب الرسول ﷺ بأن الإيمان بشريعتك لا يتم إلا من خلال الإيمان بالشرائع السابقة، فلا يكون الإنسان منتمياً إلى شريعة سيدنا محمد ﷺ ما لم يكن مؤمناً - بصراحة - بكل الأديان والشرائع المتقدمة على شريعة

الرسول ﷺ. وإلا لو آمن بشريعة الرسول ﷺ وأنكر شريعة سيدنا موسى أو سيدنا عيسى عليه السلام لم يكن مؤمناً، لأن ذلك يستلزم تكذيب الكتاب العزيز: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[1]. فالآية المباركة صريحة في أن شرائع الله تبارك وتعالى واحدة تكاملية وكلها إسلام من الشريعة الأولى إلى الشريعة الخاتمة.

وعليه.. إذا تمكنا من التحرك على هذه الأرضية فستمكن من تجاوز كثير من الحساسيات الموجودة بين أتباع الأديان البشرية الثلاثة الموجودة على الكرة الأرضية، لأنها تصبح لغة وكتباً مشتركة وإلهاً وانتماءً مشتركاً. فنحن نؤمن بالتوراة والإنجيل المنزلين ونقدسهما كما نقدس ونحترم القرآن الكريم، لأنها كلها كتب سماوية نزلت من الله تبارك وتعالى، وتعبّر عن شريعة الله جلّ وعلا، وكلها تعبر عن الإسلام المرحلي الموجود في تلك الظروف المعينة.

يقول شيخنا الأستاذ آية الله الشيخ الهرندي (دام ظله)..

إننا ومن شعورنا بالمسؤولية وأهمية المرحلة نعتقد أن الظروف المعينة والتي فرضت نفسها علينا تستوجب تغيير الخطاب من منطلق الأصول، لا على حساب الأصول، وإعادة قراءة الأصول مرة ثانية، والاستنهاض بها حسب ما يتناسب مع الظروف الحالية، ثم صياغة الخطاب على ضوء ما تقتضيه الظروف المعاصرة، لأن لكل نبي خطاباً معيناً يتناسب مع الظروف الزمنية قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا

(1) سورة آل عمران: الآية 84.

مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1].

من هنا وحيث إن الشريعة الإسلامية هي الشريعة الخاتمة وإنها لكل الأزمنة بحسب اعتقادنا، فلابد وأن تدخل المتغيرات التاريخية والاجتماعية في دائرة الخطاب التي تطرحه تلك الشريعة.

فإذا تحركنا من هذا المنطلق وقلنا: بأن شريعة الله تبارك وتعالى واحدة، وأن الإسلام ليس صفة خاصة للشريعة الخاتمة وإنما هي صفة مشتركة بين كل الأديان والمذاهب، فشريعة سيدنا نوح وسيدنا إبراهيم وسيدنا موسى وسيدنا عيسى وسيدنا محمد ﷺ كلها إسلام، فحينئذٍ لابد من اللغة المشتركة بين جميع هذه الأديان والمذاهب.

فعليه لابد من التحرك على أساس بناء قاعدة فكرية مشتركة وإذابة الجليد المتراكم الموجود بين أتباع هذه الديانات والشرائع على طول التاريخ.

وما نطرحه ـ في هذا البحث ـ أكثر تلاؤماً من الحالة الحضارية المعاصرة، بل أكثر تلائماً من العولمة، لأنها ـ العولمة ـ تحاول تذويب الفوارق الموجودة بين المجتمعات البشرية والقارات والدول وتحويل المجتمع العالمي إلى مجتمع واحد، ولكن إذا أثبتنا أن هذا المجتمع الواحد أيضاً ينتمي إلى دين واحد مع الحفاظ على الاختلافات والفوارق والمميزات الموجودة بين هذه الأديان، تمكنا من إيجاد لغة مشتركة وصياغة خطاب موحد بيننا وبين الآخرين، وحينها نصل إلى طريق يمهد لظهور الإمام المهدي بن الحسن (عجل الله تعالى فرجه الشريف).

---

(1) سورة إبراهيم: الآية 4.

وفي هذا الصدد يقول المغفور له سماحة آية الله الشيخ محمد أمين زين الدين (رحمه الله):

يعترف القرآن بصواب أديان تقدمت عليه، وبصدق أنبياء، وصحة كتب، ويجعل الإسلام هذا الإقرار جزءاً من عقيدته التي ينهض عليها بناء هيكله، ويرتبط كل فرع من فروعه، يعترف القرآن والإسلام بهذه الحقيقة، ولا معدل لأي دين حق من أن يعترف بها، ويرتكز كذلك عليها.

لا معدل لأديان السماء الصحيحة من أن يبشّر الأول بالآخر (منها) ويعترف الآخر بالأول، ويتناصر الجميع على بناء العقيدة العامّة في الإنسانية عامة..

عقيدة الإيمان بالله رب العالمين الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين، وتصديق أنبياءه وكتبه من غبر منهم ومن لحق..

لابد من أن تمتد هذه الركيزة بين طبقات البشرية جمعاء، لتتحد في الاتجاه، ثم لتتفق على الغاية.

وفي ظني أن هذه الحقيقة بادية المحاسن بينة الثبوت.. أما إذا اضطررتني إلى التدليل فاستمع:

1. الاستكمال ناموس عام لكل موجود.

2. ولكل نوع من الموجودات طريق واحد معيّن يرتقي به إلى كماله.

هاتان حقيقتان بديهتان لا مفر من الإيمان بهما..[1].

وبعد أن أثبتنا أن الإسلام هو الاسم المشترك لكل الأديان

---

(1) آية الله الشيخ محمد أمين زين الدين: رسالات السماء/ 175 - 176.

والشرائع السماوية ابتداءً من شريعة سيدنا آدم عليه السلام وانتهاءً إلى شريعة نبينا محمد ﷺ يبقى هناك سؤال لابد من الإجابة عليه وهو:

لما كان الدين عند الله الإسلام ـ كما تقدم ـ فلماذا كانت الكتب السماوية مختلفة؟

وقبل الإجابة عن السؤال لابد من بيان أمر وهو:

أن الإجابة عن أي تساؤل أو أي شبهة مطروحة يكون التحرك نحوها من موقعين:

الموقع الأول: التعبد

عندما يوجه السؤال إلى من يعيش في دائرة فكرية أو دينية خاصة تكون الإجابة في كثير من الأحيان منحصرة في نص ديني معين من الكتاب الكريم أو السنة الشريفة، وذلك لأن النص قد يكون مقنعاً لشريحة كبيرة من الناس لإيمانهم بهما، وتعبدهم بالنصوص والمداليل الموجودة فيهما. ولكن قد لا تكون الإجابة التعبدية مجدية لبعض الشرائح التي تعيش فكرة معينة أو ديناً معيناً فهنا يأتي التحرك على الموقع الثاني.

الموقع الثاني: العقل

فإن الإنسان يحاول أن يتجاوز النص ليصل إلى البنية المخفية فيه، فيسأل عن الملاك والعلة والمصلحة، وفي معرض الإجابة عن الملاكات لابد من التحرك العقلائي والبرهاني.

وفي الجواب عن السؤال المتقدم نقول:

إن الكتب السماوية بحسب القراءة التفصيلية تهتم بمعالجة أمرين:

الأول: النصوص الشريفة المتفقة في أصول الدين

الثاني: النصوص الشريفة المتفقة في فروع الدين

أما في معالجة الأمر الأول:

فبالقراءة المتأنية في الكتب السماوية نجد أنها متفقة في أصول الدين. وكلها تشير إلى وحدانية الله تبارك وتعالى وإلى وجوب بعث النبي (سلام الله عليه).

أما الإمامة ـ فبحسب ما يميل إليه شيخنا الأستاذ آية الله الهرندي (دام ظله) ـ فإنها من الأصول التي لا يمكن تهميشها وعدم اهتمام الكتب السماوية بها، لأنها حتى لو فسرناها ـ كما يقول ـ بـ (القيادة السياسية) فهي تعدّ من أهم الحاجات التي يتوقف عليها النظام الاجتماعي، لأن تشريع القوانين فقط لا يخلق المجتمع السعيد والمتكامل، فلابد من جهة تنفيذية تجتمع فيها مواصفات معينة لتقوم بتثبيت القانون وتنفيذه على الشرائح الاجتماعية بشكل صحيح. ولأجل هذا الخلل لم تتمكن الشريعة الإسلامية من تحقيق أهدافها حتى الجزئية لعدم خضوع المجتمع الإسلامي وتسليمه للإمام المنصوب من قبل الله تبارك وتعالى، ومن هنا ضاعت كثير من الفرص التي كان بإمكان الشريعة أن تنتشر في العالم وتساعد المجتمعات الإنسانية على خلق السعادة والأهداف السامية. وباعتقادنا ـ كما يقول ـ أن غالب الكتب السماوية اهتمت بالإمامة لأنه لا يمكن أن يشطب عليها بالأنظمة التشريعية سواء كانت سماوية أم كانت بشرية.

كما أن كل الكتب السماوية ركزت على توصيف الله تبارك وتعالى بـ (العدل) وأن الحركة الإلهية في مجال التشريع والتقنين حركة مبنية على العدالة.

وهكذا المعاد فإنه من الأصول المشتركة بين جميع الأديان السماوية، والكل يشترك في الاعتراف بوجود عالم آخر يحاسب فيه الإنسان، يثاب فيه المطيع ويعاقب العاصي.

وبحسب هذا التحليل يثبت لنا عدم وجود اختلاف بين الكتب السماوية في الأصول والأسس والبنى التي اصطلح المتكلمون بتسميتها بـ (أصول الدين) أي القواعد العقلية التي تبتني عليها جميع الأديان والشرائع السماوية.

وأما في معالجة الأمر الثاني:

فعند القيام بدراسة مقارنة بين الكتب السماوية في المجال التشريعي نجد هناك اختلافاً بين الكتب السماوية في الأحكام الفرعية، وسبب هذا الاختلاف ناشئ من أن:

الأحكام الفرعية إنما جاءت استجابة لحالات وأوضاع اجتماعية معينة، ولا شك أن تلك الحالات ليست ثابتة على مرّ العصور والأزمنة، بل هناك متغيرات يحسّ بها الإنسان المعاصر، وثبت لنا حسب الدراسة أن ـ تلك الحاجات ـ تدخل في دائرة المتغيرات، فجاءت الشرائع لتحل مشاكل البشرية الموجودة، وتطرح القوانين والتشريعات المتناسبة مع الحاجات.

من هنا، عندما قامت كل شريعة سماوية بأداء دورها المطلوب وحصلت تغييرات وتحولات اجتماعية حديثة، طرحت حاجات جديدة وتضمنت مشاكل جديدة، فظهرت الحاجة إلى حلول وأحكام تفريعية جديدة غير تلك الأحكام التفريعية الموجودة في الشرائع المتقدمة. فشريعة آدم عليه السلام أشغلت الحاجات الفردية والاجتماعية في مرحلة وحقبة زمنية معينة، وبعد أن أدت دورها

وانتهى أمدها جاءت شريعة سيدنا نوح عليه السلام لتهتم بالمشاكل المستجدة وتطرح القوانين الجديدة. لأن الإنسان لا يمكن أن يظل بلا ضوابط وأحكام تنظم حياته وتهديه إلى الحياة المنظمة البعيدة عن الفوضى والارتجال.

إن كل الأديان السماوية كانت أدياناً مرحلية أدت الدور المطلوب في تلك الحقبة الزمنية المعينة. وبعد حصول التغيير في الأوضاع الاجتماعية والحاجات الفردية كان لابد من إحداث شريعة جديدة بإرسال رسول وكتاب جديد يتضمن أحكاماً جديدة تستجيب للحالات المستجدة وتهتم بالمشاكل الفردية والاجتماعية الجديدة. ومن هنا حصل التغيير بين الشرائع السماوية في الأحكام الفرعية، خاصة وأن البشرية توسعت كما اتسعت الرقعة الجغرافية التي تعيش عليها.

وعند القيام بالمقايسة والموازنة بين الشرائع السماوية نجد أنها تشترك في بعض الأحكام الفرعية وتختلف في أحكام فرعية أخرى. فلم تتغير أحكام الحاجات الثابتة، وإنما حصل التغيير في الحاجات المتغيرة والمشاكل الجديدة والحديثة.

رب قائل يقول: إنه كان بإمكان الباري عزّ وجل أن يكمّل شريعته في الرسالة والنظام التشريعي الأول فما السرّ في هذا التعدد بالشرائع والأديان؟

ويجيب شيخنا الأستاذ آية الله الهرندي (دام ظله) فيقول:

لا شك ولا ريب في أن النظام التشريعي يجب أن يلاحظ الإمكانية والقابلية العقلية والفكرية الموجودة عند الفرد والمجتمع في الخطاب الموجّه إليه، فلا يتمكن المجتمع البدائي أن يتفاعل مع تشريع قانوني متكامل.. من هنا نجد أن الحركة التعليمية

المعاصرة حركة تدريجية، فهناك نظام تدريسي للمرحلة الابتدائية ونظام آخر للمرحلة المتوسطة ونظام ثالث للمرحلة الثانوية لينتهي الإنسان في المرحلة الأخيرة إلى الأنظمة التدريسية التي تهيئه لحمل أعلى الشهادات التي تزودها الأكاديميات للمنتسبين إليها. فالتدريجية حالة بشرية لا يمكن إنكارها.

إذن حيث إن الإنسان الأول البدائي لم يكن مهيئاً لقبول الشريعة المتكاملة، فمخاطبته بالشريعة المتكاملة مخاطبة بخطاب لا يفهمه ولا يمكن أن يتفاعل ويتساير معه، فاستعملت الطريقة التدريجية بإرسال الكتب والأنبياء والرسل لتهيء البشرية لاستلام الشريعة المتكاملة.

بقيت هناك شبهة لابد من التخلص منها وهي:

إننا عندما نقوم بدراسة الكتب السماوية لا نجد هناك اتفاقاً وتطابقاً ووحدة حتى في أصول الدين فمثلاً، هناك خصائص لله تبارك وتعالى في التوراة، وتصوّر الذات المقدسة كإنسان مجسّد ينزل إلى الأرض ليتصارع مع يعقوب ـ مثلاً ـ، وهناك تصوير عن الله تبارك وتعالى في الإنجيل، والمسيحية بكل تقسيماتها المعاصرة تعتقد بنظرية التثليث، والذي يستبطنه القرآن الكريم حول الذات المقدسة يختلف اختلافاً بيّناً وجوهرياً مع ما تحتويه الكتب السماوية الأخرى. فكيف يمكن القول بأن الأديان السماوية متحدة في أصولها؟

وبعبارة ثانية: إننا بدراستنا لهذه الكتب السماوية سنفتح حقولاً حول توحيد الذات المقدسة، والنبوة، والإمامة، والعدل، والمعاد، وحين نضع الآيات الكريمة المتعرضة لهذه الأصول الخمسة ونقارن بين النصوص نجد أن هناك تهافتاً بيّناً بهذه البنى الخمس والتي ادعينا الاتفاق والاتحاد بينها.

ويجيب شيخنا الأستاذ (دام ظله) فيقول:

إن الأصول الخمسة التي تعرضنا لها هي في الحقيقة تعتمد على استدلالات عقلية قبل أن تعتمد على نصوص شريفة في الكتب المقدسة، فعندما نريد إثبات وجود الله جلّ وعلا أو إثبات صفاته أو أوصافه وتقسيم تلك الأوصاف إلى قسمين ذاتية وفعلية، كمالية وجمالية، يكون أساس اعتمادنا على الحركة العقلية، لأن العقل هو المَعين والمشير إلى الذات المقدسة وإلى صفاته وكيفية تلك الصفات، والنص إنما يأتي ليدعم الحركة والنظرية العقلية. فليس النص هنا نصاً تأسيسياً بل هو نص تشريعي وتفسيري وإرشادي.

إذن في جميع الأصول من (التوحيد والنبوة والإمامة والعدل والمعاد) اعتمدنا على الأدلة العقلية، ولم نعتمد على النصوص الشريفة - الأدلة النقلية - في إثبات تلك الأصول. وجلُّ ما تتضمنه الآيات المباركات في الكتب السماوية التفسير لتلك الرؤية الإجمالية التي لا يتمكن العقل من الوصول إلى عمقها وحقيقتها أو هي إرشادية إلى حكم العقل.

المحور الثاني

الاستخلاف ونيابة الإنسان عن الله

توطئة:

في سبيل إقامه الصلة بين الأديان السماوية، لابد لنا من البحث عن خيوط دقيقة تربط بين هذه الأديان، وتشكل نسيجها الفكري. ولابد لنا من أن نؤسس لقاعدة نظرية تقوم عليها القواعد العامة لكل الأديان السماويه. وما عملنا هذا إلا لتوحيد الأديان ـ الصادرة من مصدر واحد ـ وإلا للتوحّد بين إتباع هذه الأديان من بني الإنسان لكي يدركوا ثمرة الإيمان ويذوقوا حلاوته من خلال صفٍّ موحَّدٍ يستند إلى موقف موحّدٍ ينطلق من فكرة الدين الواحد.

ومن هذه المفاهيم الموحدة بين الأديان فكرة الاستخلاف التي تعني: أن الله جعل الإنسان خليفة له في الأرض وأوكل إليه مهمة إعمارها قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ...﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾[2] والاستخلاف يعني أن الخليفه يمارس كلَ أو بعضَ صلاحيات المستخلِف ومهامه وفق شرائط وضوابط معلومة.

---

(1) سورة سورة يونس: الآية 14.

(2) سورة البقرة: الآية 30.

وهذه الشروط والضوابط هي الشرائع السماويه. فالإنسان الخليفة يعمِّر الأرض، ويشيع فيها الأمن والسلام، والعدل، والمحبه، ويحرث الأرض، ويقيم المصانع، ويجري الأنهار، ويفجّر العيون.. تحقيقاً لنماء الإنسان ورفاهيته وفق مبدأ التوحيد وتعظيم نعم الإله وشكرها.

وهذا ما أراده الله ـ سبحانه وتعالى ـ للإنسان. فإذا رأينا الإنسان يطغى ويتجبر ويسلب حق غيره، ويسطو على ماله، ويغزو على عرضه، فذلك مخالف لشرائط الاستخلاف التي هي حدود الله تعالى.

وحول هذا المحور سنتكلم في ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الإنسان والاستخلاف

المبحث الثاني: المنظور الديني لنظرية الاستخلاف

المبحث الثالث: مهام الاستخلاف

المبحث الأول
الإنسان والاستخلاف

الإنسان هو الإنسان منذ آدم ﷺ إلى يومنا هذا، والدينُ هو الدين من أول الأنبياء آدم ﷺ إلى خاتمهم محمد ﷺ.

وإذا اختلف الإنسان عن الإنسان من عصر إلى عصر، ومن بيئة إلى أخرى، فجوهر الإنسان ـ بإنسانيته ـ باقٍ، لم يتغير بفطرته، وطبيعته، وتكوينه النفسي والجسمي. وما التغيرات التي طرأت عليه إلّا تغيرات شكلية اقتضتها ظروف الزمان والمكان وسنة التطور في الحياة الاجتماعية، مثل التغير في الملبس والمأكل والسكن وآلات العمل ووسائط النقل وغيرها من أمور ارتبطت بتطور معرفة الإنسان واكتشافه لكنوز الأرض وثرواتها الطبيعية.

وهذا ما لحظه الباحثون في تاريخ الإنسان البايولوجي، والفكري، والحضاري. فالإنسان هو الإنسان في تطلعاته، وآماله، وآلامه، ونزعاته المادية والروحية، وسعيه لتحقيق إنسانيته، ودأبه في بناء حياته، وتهيئة كل الظروف المادية لعيشه، وخلق، وإيجاد كل المقوّمات الفكرية والروحيّة لاستمرار حياة منتجة مستقرّة.

والدين هو الدين الذي يشير إلى عقيدة التوحيد وما يستتبعها من إيمان بقيم السماء ومفاهيمها، وما يتطلب ذلك من التزام بحدود الله، وبكل الفضائل الأخلاقية التي سنّها وشرّعها.

والاختلافات الجزئية والتفصيلية ناتجة عن المعالجات الموضعية الناجمة في هذا الجيل، أو ذاك، وفي هذا المحيط الاجتماعي أو ذاك وتقويم الانحرافات في هذه الأمة أو تلك،

وكبح جماح هذه النزعة التي تشكّل خرقاً لطبيعة الإنسان ولشريعة السماء، وتبقى ثوابت الدين، كما هي من دون تغيير، أو تبديل. فالله الخالق يعرف طبيعة ما خلق، وما يحتاجه المخلوق، وهو أعلم بالمخلوقين.

وإذا اختلف الدين ـ في أحكامه وتفصيلاته، واسلوب تعامله مع الحياة والأحياء ـ فهو اختلاف اقتضته طبيعة التطور الذهني والنفسي وتعقد الحياة من حوله، والحاجة إلى قوانين وتشريعات تنظيمية لأن طبيعة العمل البشري تتغير والعلاقات تتعقد والمشكلات تتوسع. فهو تغيّر في التفصيلات، وليس تغيّراً في الجوهر. فالعقيدة هي التوحيد، والإيمان به يعني التسليم بحكم الله الواحد، والهدف واحد هو الوصول إلى طاعة الله، والعمل بأحكامه، وصولاً إلى سعادة الدارين.

إن عقيدة التوحيد تهيء للإنسان وفي كل الأجيال والأزمنة والأمكنة أرضاً ثابتة مستقرّة، واحدة لا تتغيّر، لأن مفاهيم التوحيد واحدة، والقيم التي تنطلق منها وتبتنى عليها واحدة، والممارسات الحياتية الإنسانية التي تنطلق منها واحدة، ولابد من أنها تسير على نسق واحد.

أما ما نراه من اختلاف السلوك الإنساني، أو ردّات الفعل تجاه موقف ما، فما هي إلّا نتيجة لسوء فهم لعقيدة التوحيد، أو قصور في فهمه، أو انحراف مقصود أو غير مقصود عن عقيدة التوحيد.

إذن لابد من أن يختلف الدين على هذا الأساس: فهماً وتطبيقاً. نظرة أو سلوكاً، هدفاً ووسيلة، مقصداً أو غاية. وهذا ما نراه اليوم في السلوك الديني للبشر. فنراه يتأرجح بين التسامح

والتشدّد، وبين المرونة والتعصب، وبين الروحانية المطلقة، والمادية المنفّرة. بل بين الإنسانية ـ كما أرادها الله ـ والشيطانية كما تفرضها النوازع الغرائزية للإنسان، والتي تسلكه في عداد الحيوان، فالفهم الصحيح لعقيدة التوحيد، يوحّد سلوكنا الإنساني على مرّ العصور واختلاف الظروف.

إذن الإنسان واحد، من آدم وإلى يومنا هذا، والدين واحد، من آدم إلى يومنا هذا. وبما أن نظرية الاستخلاف مقرّرة في كل الأديان بمسمّياتها المتعدّدة، ومقدرة كجزء من مهمة الإنسان على هذه الأرض، فالاستخلاف فكرة دينية عامة، وليست فكرة إسلامية خاصة. ويتضح ذلك ـ بجلاء ـ من خلال استعراض ودراسة مصطلح (الخليفة) ومهام الاستخلاف التي هي مشتركة بين الأديان جميعاً، بل هي الأرضية المشتركة التي تقوم عليها الأديان جميعاً.

إن فكرة الاستخلاف تنطلق من كون الإنسان لم يخلق عبثاً من دون وظيفة، أو دور، أو غاية على الأرض، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2]، فإذا فهمنا العبادة بالمعنى العام والشامل وهي كون كل عمل يقوم به الإنسان ويقصد به طاعة الله ووجهه الكريم فهو عبادة. فإن عمل الإنسان في الأرض وإعمارها وسعيه في مناكبها هو لون من ألوان العبادة المفروضة أو الطوعيّة (المستحبّة). وهذا الفهم يعطي للإنسان زخماً ودفعاً في أداء دوره على الأرض طاعة لله، ونفعاً للناس، وإعماراً للأرض بكل عمل خير.

---

(1) سورة المؤمنون: الآية 115.

(2) سورة الذاريات: الآية 56.

كما أنّ فكرة الاستخلاف غريزية في طبع الإنسان ـ وعى الإنسان ذلك أم لم يعِ ـ فهو يتحرّك نحو هدف، وقصديّة لمصلحة خاصة، أو عامة. فهو يسعى بدأب إلى بناء حياته، وتطوير امكاناته، وتحسين ظروفه، وكل ذلك يصبّ في عملية الاستخلاف وممارسة آلياتها، وتحقيق أهدافها. إنّ الإيمان بعقيدة الاستخلاف جزءاً من مفاهيم الدين، وطبيعة من طبائع الإنسان يعطيها خاصيّة النبات والاستمرار وفاعلية الإنسان وعمق ارتباطه بالكون وخالقه.

إنّ أول خطوة اتخذت من قبل الله تعالى بعد خلق الإنسان هي استخلافه في الأرض كلّها مما يدلل على أمرين:

1: أهمية الإنسان كمخلوق متميز.

2: وأهمية موقع الاستخلاف في الأرض.

ونفهم من هذه الحقيقة اقتران الاستخلاف بوجود الإنسان المطلق.

إنّ تكليف الإنسان بمهمة الاستخلاف في الأرض، دليل على مركزية الإنسان في هذا الكون الفسيح، وعلى أهمية الوظيفة الاستخلافية في الأرض. فالإنسان مخلوق الله سبحانه على صغر جرمه ومحدودية قدراته، أُعطي من الصلاحيات، وكلّف من الواجبات مما يجعله خليفة الله في الأرض يأمر وينهى، ويمارس وظائفه نيابة عن الله جلّ وعلا. كما أن الأرض ينبغي ألّا تخلو من إنسان مستخلف، وينبغي ألا تظلّ مهمة الاستخلاف شاغرة، لا شاغل لها، ولا قائم بمهامّها، فهي وظيفة أساسية وحيويّة، وفاعلة في حياة الإنسان وفي سنن الكون، وقوانين الوجود، فبها ـ وحدها ـ تسري أحكام الله وشرائعه، وبها ـ وحدها ـ يعبد الله حقّ العبادة، وبها ـ وحدها ـ يمارس الإنسان سعيه الدائب الهادف في

تحقيق إنسانيته، وبناء حضارته المؤمنة الصالحة، وبها ـ وحدها ـ يمتدّ الصلاح إلى كل جوانب الأرض: قولاً وعملاً، وفعلاً إنسانياً، وفكراً إلهياً. وفضائل أخلاقية، وغايات ربّانية. ولذلك كان الإمام علي عليه السلام يؤكد في عهده إلى مالك الأشتر إلى أهمية عمارة الأرض بغض النظر عن خراجها المالي، لأن الأرض هي المكان الذي استخلف الله عليه الإنسان وهي رمز السكن والعمل والخير والحياة البشرية، وعليها يختبر الإنسان بعمله وإيمانه، يقول عليه السلام: (وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة. ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد، ولم يستقم أمره إلا قليلاً، فإن شكوا ثقلاً أو علة أو انقطاع شرب أو بالة أو إحالة أرض اغتمرها غرق أو أجحف بها عطش خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم. ولا يثقلن عليك شئ خففت به المؤونة عنهم، فإنه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك وتزيين ولايتك، مع استجلابك حسن ثنائهم وتبجحك باستفاضة العدل فيهم معتمداً فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من إجمامك لهم والثقة منهم بم عودتهم من عدلك عليهم في رفقك بهم. فربما حدث من الأمور ما إذا عولت فيه عليهم من بعد احتملوه طيبة أنفسهم به، فإن العمران محتمل ما حملته، وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها وإنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع، وسوء ظنهم بالبقاء، وقلة انتفاعهم بالعبر...)[1].

(1) نهج البلاغة: شرح الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده/ 3، 97.

المبحث الثاني
المنظور الديني لنظرية الاستخلاف

إن منهجية هذا البحث تقتضي أولاً: استنطاق معاجم اللغة لمصطلح (الخليفة)، وثانياً: استعراض الكتاب الكريم لهذا المصطلح ومشتقاته، وثالثاً: التعرف إلى وجهات نظر بعض المفسرين والأعلام حول المصطلح وما يتضمنه من مدلولات...

أولاً: الخليفة في اللغة

قال الزبيدي: (الخَلَف بالتحريك، خلف الإنسان الذي يخلُفُه من بعده، يأتي بمعنى البدل، فيكون خلفاً منه، أي: بدلاً... يخلفه خلفاً، وخلافة وخلفني فكان نعم الخلف، وبئس الخلف... هو في الأصل مصدر سُمّيَ به من يكون خليفةً، والجمع أخلاف... قال ابن الأثير: الخلف، بالتحريك، والسكون: كل من يجيء بعد من مضى... والخليفة: السلطان الأعظم، يخلف من قبله، ويسد مسده...)[1].

وعلى هذا.. فإن الخلف في نظر الزبيدي يستدعي إلغاء المستخلِف بأي نوع من أنواع الإلغاء. بل قد يظهر من مجموع قوله موته كي يسمى الذي بعده خلفة.

وقال ابن منظور: (إن الخلف خلف الإنسان الذي يخلفه من بعده، يأتي بمعنى البدل فيكون خلفاً منه أي بدلاً...وفي أهله يخلفه خلفاً وخلافة. وخلفني فكان نعم الخلف).

---

(1) محمد مرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس/ 12، 184 - 195، مادة (خلف)، دراسة وتحقيق: علي شيري، دار الفكر - بيروت - لبنان.

وهذا خلاف ما ذهب إليه الزبيدي، وما نقوله عن الخليفة بالمعنى العام حيث يمكن أن يكون مع بقاء المستخلِف مع المستخلَف شرط زوال صلاحيات الأول عند وجود الثاني.

ثم يقول ابن منظور: (والفاعل منه خليف وخليفة، والجمع خلفاء وخلائف... وأما الخلْف: ساكن الأوسط، فهو الذي يجيء بعد. يقال: خلف قوم بعد قوم، وسلطان بعد سلطان يخلفون خلفاً، فهم خالفون...)[1].

وهنا فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾[2].

وهذا تأكيد لما ذهبنا إليه آنفاً.

وقال الراغب الأصفهاني: (خلف: ضد قدام... وإذا جاء خلف آخر وإذا قام مقامه، ومصدره الخلافة، ... ـ وتستعمل أيضاً بمعنى النيابة ـ والخلافةُ النيابةٌ عن الغير إما لغيبة المنوب عنه وإما لموته ـ وهنا فصل الراغب ما قلناه آنفاً ـ وإما لعجزه وإما لتشريف المستخلف وعلى هذا الوجه الاخير استخلفَ الله اولياءه في الأرض، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ...﴾، وقال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ...﴾...)[3].

إذن المعنى اللغوي للخلافة من خلال استنطاق المعاجم اللغوية هو: النيابة والقيام بالمسؤولية مقام الآخر.

---

(1) جمال محمد بن مكرم ابن منظور: لسان العرب/ 9، 89 ـ 97، مادة خلف، نشر أدب الحوزة، قم المقدسة ـ ايران.

(2) سورة مريم: الآية 59.

(3) الراغب الأصفهاني: مفردات غريب القرآن/ مادة (خلف).

ثانياً: الخليفة في الكتاب الكريم

وعند البحث في الكتاب الكريم نجد أنه تم استخدام مصطلح (الخليفة) ضمن حالات متعددة وسياقات متباينة، ابتداءاً من المفردة (خليفة) والجمع (خلائف) ومشتقاته خلفاء، خلائف، مستخلف، ولا بأس بالتعرض إلى نماذج من هذه الآيات المباركات.

مصطلح خليفة:

1. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

وهذا هو الاستخلاف العام.

2. وقال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾[2].

وهذا هو الاستخلاف الخاص.

مصطلح خلفاء:

1. قال تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3].

---

(1) سورة البقرة: الآية 30.
(2) سورة ص: الآية 26.
(3) سورة الأعراف: الاية 69.

2. وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[1].

3. وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾[2].

وهذه الآيات الثلاث تشير إلى المعنى العام للاستخلاف.

مصطلح خلائف:

1. قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[3].

2. وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾[4].

3. وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾[5].

مصطلح مستخلف:

1. قال تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ

---

(1) سورة الأعراف: الآية 74.
(2) سورة النمل: الآية 62.
(3) سورة الأنعام: الآية 165.
(4) سورة يونس: الآية 73.
(5) سورة فاطر: الآية 39.

مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[1].

وهناك آيات مباركات ورد فيها لفظ الاستخلاف بصيغ واشتقاقات متعددة منها:

1. قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[2].

2. قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾[3].

3. قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[4].

4. قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[5].

وبعد هذا الاستعراض لآيات الكتاب الكريم، ومن خلال دراسة مصطلح (الخليفة) على ضوء ما تقدم في تلك الآيات

---

(1) سورة: الحديد: الآية 7.
(2) سورة الأنعام: الآية 169.
(3) سورة هود: الاية 57.
(4) سورة النور: الآية 55.
(5) سورة الأعراف: الآية 29.

المباركة نجد أن الاستعمال القرآني للمصطلح ومشتقاته كان كما يأتي:

1. أن مصطلح (الخليفة) جاء بصيغة المفرد في القرآن الكريم كما في الآيتين المباركتين: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾. وقوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ...﴾. وكان ذلك بخصوص سيدنا آدم وداود عليهما السلام.

2. يقترن مصطلح (الخلافة، والخليفة) عادة بالأرض، وبدراسة الآيات المباركة نجد أن مصطلح الأرض يدل على مطلق ما يحيط بالإنسان. كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾. وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

3. اقتران مصطلح (الخلافة، والخليفة) بالفعل الإلهي. وقد جاءت في الآيات المباركات بصيغة الجعل (جعلناكم، جعلناك، جعلكم. . .). بمعنى أن الاستخلاف ليس أمراً تكوينياً، وإنما هو فعل إلهي لما تتطلبه الخلقة وتتوافق معه، أي أنها من باب السنن الالهية التي هي قابلة للتحدي[1]. وهذا ما نجده في الآيات المباركات. . . ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾. وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾. وقوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾.

(1) يلاحظ لذلك مفصلاً السيد محمد باقر الصدر: التفسير الموضوعي - السُنن الإلهية وأنواعها.

4. الظاهر من استعمال القرآن الكريم لمصطلح (خلفاء، خلائف) بصيغة الجمع، والتي وردت في الآيات المباركات كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ أن الخطاب يشمل البشرية والإنسانية، وليست خاصة بفرد أو بجماعة.

واستعملت بصيغة الجمع في مواضع من الخطاب القرآني مع اختلاف دلالتها في الاستعمال، إذ عنت جماعة المؤمنين خاصة كبشارة لهم أو ترويح لنفوسهم من عناء حمل الحكم الإلهي مقابل الأذى الذي يلاقونه من المشركين، فهي دالة على التمكين والقدرة والسيطرة في الأرض لهذه الجماعة المؤمنة الصالحة، كما في الآيات المباركات: قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾. وقوله تعالى: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

5. ورد مصطلح (الخليفة، والخلافة..) بمعنى الحكم ونجد ذلك واضحاً من خلال قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾. فإن موضوع الحكم، نشأ على استقرار الخلافة وتحققها في شخص نبي الله داوود ﷺ. أي أن الله سبحانه وتعالى أعطاه الحكم والفصل بين الخلق. وهو ما اختص به تعالى الأنبياء والربانيين.

6. استعمل مصطلح (الخلافة والخليفة، والخلائف..) بمعنى الوراثة وانتقال المهام والمسؤوليات، والمخاطب فيه البشرية عامة، وهذا ما نستفيده من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾.

7. أن الاستعمال القرآني لمصطلح (الخلافة) يمكن ملاحظته بخصوص الأنبياء والذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم وهما (آدم وداود عليهما السلام). ولما كان معنى الاستخلاف لا يختص بسيدنا آدم عليه السلام كما هو رأي الكثير من المفسرين.. فيكون المعنى: نيابة البشرية عن الله في استخلاف الأرض، أو كما ورد بخصوص الجماعة المؤمنة الصالحة.. بمعنى: تحمُل البشرية بشكل عام والجماعة المؤمنة الصالحة بشكل خاص مسؤولية النيابة عن الله في إعمار الأرض وإنمائها وإدارتها وتطويرها وادارة شؤون من يسكن عليها.

8. الخلافة لله سبحانه في العلم بالأسماء ـ كما ذهب إليه العلامة الطباطبائي في تفسيره ـ[1].

9. الخلافة لله سبحانه في الأرض بما نفخ فيه من روحه سبحانه ووهبه من قوة غير محدودة، سواء في قابليتها أو شهواتها أو علومها، ـ كما ذهب إلى ذلك الشيخ محمد عبده ـ[2].

ثالثاً: تصورات الأعلام في مصطلح الخليفة

وفي هذا البحث نستطلع آراء ووجهات نظر جملة من الأعلام حول مصطلح الخليفة، وما يتضمنه من مدلولات...

(1) السيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن/ في تفسيره للآية المباركة...

(2) لاحظ النقطة التاسعة.. السيد محمد باقر الحكيم: علوم القرآن/ 452، مجمع الفكر الإسلامي، قم المقدسة ـ إيران، الطبعة الثالثة.

أولاً: تصور العلامة الطباطائي

ويمكن تلخيص تصوره (رحمه الله) في النقاط التالية:

1. أن خليفة الله موجود مادي مركب من القوى الغضبية والشهوية، والدار دار التزاحم، محدودة الجهات، وافرة المزاحمات، مركباتها في معرض الانحلال، وانتظاماتها وإصلاحاتها في مظنة الفساد ومصب البطلان، لا تتم الحياة فيها إلا بالحياة النوعية، ولا يكمل البقاء فيها إلا بالاجتماع والتعاون، فلا تخلو من الفساد وسفك الدماء.

2. الخلافة: هي قيام شيء مقام آخر لا تتم إلا بكون الخليفة حاكياً للمستخلِف في جميع شؤونه الوجودية وآثاره وأحكامه وتدابيره بما هو مستخلَف.

3. أن الملائكة حين تعجبوا كانوا يرون أن الغاية من جعل الخلافة هي أن يحكي الخليفة مستخلفه بالتسبيح والتحميد والتقديس لله سبحانه بوجوده، والأرضية والانتماء إلى الأرض وشهواتها لا تدعه يفعل ذلك بل تجره إلى الفساد والشر، هذا مع أن الغاية من جعل الخلافة يمكن أن تتحقق لهم، بتسبيحهم بحمد الله وتقديسهم له.

4. أن الخلافة المذكورة إنما كانت خلافة الله تعالى، لا خلافة نوع من الموجود الأرضي... واستحق آدم ﷺ الخلافة لقدرته على تحمل السر الذي هو عبارة عن تعلم الاسماء التي هي موجودات حية عاقلة محجوبة تحت حجاب الغيب محفوظة عند الله تعالى... وعلى هذا فالخلافة غير مقصورة على شخص آدم ﷺ بل بنوه يشاركونه فيها من غير اختصاص، ويكون معنى تعليم الأسماء هو: إيداع هذا العلم في الإنسان بحيث يظهر منه آثاره تدريجاً...

ويؤيد عموم الخلافة قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾[3][4].

5. كون الناس خلائف في الأرض هو قيام كل لاحق منهم مقام سابقه وسلطته على التصرف والانتفاع منها كما كان السابق مسلّطاً عليه، وهم إنما نالوا هذه الخلافة من جهة نوع الخلقة... فجعل الباري عزّ وجل الخلافة الأرضية نوع من التدبير مشوب بالخلق غير منفك[5].

ثانياً: تصور الشهيد السيد محمد باقر الصدر

يرى الشهيد الصدر (رحمه الله): أن قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾... أن الله سبحانه وتعالى شرّف الإنسان بالخلافة على الأرض، فكان الإنسان متميزاً عن كل عناصر الكون بأنه خليفة الله على الأرض، وبهذه الخلافة استحق سجود الملائكة له، وأن تدين له بالطاعة كل قوى الكون المنظور وغير المنظور.

والخلافة التي تتحدث عنها الآيات الشريفة المذكورة.. ليست استخلافاً لشخص آدم عليه السلام بل للجنس البشري كله، لأن من يفسد

---

(1) سورة الأعراف: الآية 69.

(2) سورة يونس: الآية 14.

(3) سورة النمل: الآية 62.

(4) السيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن/ 1، 100 ـ 103.

(5) السيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن/ 17، 43 ـ 44.

في الأرض ويسفك الدماء وفقاً لمخاوف الملائكة ليس آدم عليه السلام بالذات بل الآدمية والإنسانية على امتدادها التاريخي. فالخلافة إذن قد أعطيت للإنسانية على الأرض. ولهذا خاطب القرآن الكريم المجتمع البشري في مراحل متعددة وذكّرهم بأن الله قد جعلهم خلائف في الأرض، وكان آدم عليه السلام هو الممثل الأول لها بوصفه الإنسان الأول الذي تسلم هذه الخلافة، وحظي بهذا الشرف الرباني فسجدت له الملائكة ودانت له قوى الأرض[1].

فأول مايترتب على هذا الاستخلاف تحمل الإنسان لأعباء الخلافة بوصفها أمانة عظيمة ينوء الكون كله بحملها ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[2]. وعلى أساس الخلافة يتفرع الحكم: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾[3].

ويرى الشهيد الصدر (رحمه الله).. أن سجود الملائكة لم يكن لعنوان أنه خليفة بل لأنه خليفة معلّم بالأسماء. وذلك هو الفرق بين آدم عليه السلام والآدمي.

إن هذا الكائن الحر الذي اجتباه الله للخلافة قابل للتعليم والتنمية الربانية، وإن الله قد وضع له قانون تعامله من خلال خط آخر يجب أن يسير إلى جانب خط الخلافة هو خط الشهادة الذي يمثل القيادة الربانية والتوجيه الرباني على الأرض.

---

(1) السيد محمد باقر الصدر: الإسلام يقود الحياة/ 133، بتصرف.
(2) سورة الأحزاب: الآية 72.
(3) سورة ص: الآية 26.

كما أن استخلاف الله تعالى خليفة في الأرض لا يعني استخلافه على الأرض فحسب بل يشمل هذا الاستخلاف كل ما للمستخلف سبحانه وتعالى من أشياء تعود اليه والله هو رب الأرض وخيرات الأرض ورب الإنسان والحيوان وكل دابة تنتشر في أرجاء الكون الفسيح وهذا يعني أن خليفة الله في الأرض مستخلف على كل هذه الأشياء.

ويرى (رحمه الله): أن مفهوم الإسلام الأساسي عن الخلافة.. هو أن الله سبحانه وتعالى أناب الجماعة البشرية في الحكم وقيادة الكون وإعماره اجتماعياً وطبيعياً. وعلى هذا الأساس تقوم نظرية حكم الناس لأنفسهم وشرعية ممارسة الجماعة البشرية حكم نفسها بوصفها خليفة عن الله ـ ولكن ذلك لا يتم إلا عن طريق القانون الخاص للإستخلاف ـ

وعملية الاستخلاف الرباني للجماعة على الأرض بهذا المفهوم الواسع تعني: انتماء الجماعة البشرية إلى محور واحد وهو المستخلِف أي الله سبحانه وتعالى الذي استخلفها على الأرض بدلاً عن كل الانتماءات الأخرى والإيمان بسيد واحد ومالك واحد للكون وكل ما فيه وهذا هو التوحيد الخالص ـ وهذا ما نعبر عنه بالمرتكزات الفطرية التي ترجع الأمور بأدنى نظر وتأمل إلى الله عز وجل.

إن الملائكة لاحظوا خط الخلافة بصورة منفصلة عن الخط المكمل له بالضرورة فثارت مخاوفهم، وأما الخطة الربانية فكانت قد وضعت خطين جنباً إلى جنب أحدهما: خط الخلافة، والآخر: خط الشهادة الذي يجسده شهيد رباني يحمل إلى الناس هدى الله ويعمل من أجل تحصينهم من الإنحراف وهو الخط الذي أشار اليه

القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

وعملية الاستخلاف الرباني بهذا المفهوم الواسع تعني:

1. تجسيد روح الأخوة العامة في كل العلاقات الاجتماعية بعد محو ألوان الاستغلال والتسلط. فالناس جميعاً متساوون بالنسبة إليه، فمن الطبيعي أن يكونوا أخوة متكافئين في الكرامة الإنسانية والحقوق كأسنان المشط على ما عبّر الرسول الأعظم ﷺ ولا تفاضل ولا تمييز في الحقوق الإنسانية.

2. الاستخلاف استئمان، والأمانه تفترض المسؤولية، فلابد من أن يدرك الإنسان أنه مسؤول لينهض بأعباء الأمانة: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾[2].

والمسؤولية علاقة ذات حدين: فهي من ناحية تعني الارتباط والتقيُّد. فالجماعة المخولة من قبل الله تعالى مسؤولة أن تحكم بالحق، وتؤدي إلى الله تعالى أمانته بتطبيق أحكامه... بتطبيق الحق والعدل، ورفض الظلم والطغيان، وهي ليست مخيّرة بين هذا وذاك.

وتعني المسؤولية ـ من ناحية اخرى ـ أن الإنسان كائن حرٌّ، إذ بدون الاختيار والحرية لا معنى للمسؤولية. فالمستخلَف هو الكائن الحر المختار الذي بإمكانه أن يصلح في الأرض وبإمكانه أن يفسد أيضاً بإرادته واختياره يحدِّد ما يحققه من هذه الإمكانات: ﴿إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[3].

(1) السيد محمد باقر الصدر: الإسلام يقود الحياة/ 139.
(2) سورة الإسراء: الآية 14.
(3) سورة الإنسان: الآية 3.

3. أن فكرة الاستخلاف ـ على الرغم من كونها فكرة دينية ـ إلا أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ خصّ بها الإنسان على أي دين كان، سواء وعى ذلك أم لم يعه، وسواء في ذلك من تحسس دوره والتمس سبيله أم لا. وعلى ذلك تصلح فكرة الاستخلاف قاعدة واقعية لتوحيد بني البشر جميعاً. توحيدهم في المنطق وفي السبيل، وفي الهدف، فكيف بالمؤمنين الموحدين من كل الأديان الذين أبصروا سبيلهم في ضوء هدى الله، ورحمته، فإنهم أولى بالتوحيد، والتراص لتحقيق هدف عظيم خلقهم الله لأجله ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1][2].

ثالثاً: تصور العلامة الشيخ محمد عبده

ولنظرية العلامة الشيخ عبده (رحمه الله) أركان أساسية ثلاثة هي:

1. أن الله سبحانه وتعالى أخبر الملائكة بالقرار الإلهي، في أن يجعل في الأرض خليفة عنه يودع في فطرته (الإرادة المطلقة) التي تجعله قادراً على التصرف، حسب قدرته ومعلوماته التي لا يمكن أن تصل إلى مرتبة الكمال...

وعلى أساس هذه الإرادة المطلقة، وهذا العلم الناقص، عرّف الملائكة أن هذا الخليفة سوف يسفك الدماء ويفسد في الأرض، لأن ذلك نتيجة طبيعية لما يتمتع به من إرادة مطلقة يسير

---

(1) سورة الذاريات: الآية 56.

(2) انظر لذلك مفصلاً: الشهيد محمد باقر الصدر: الإسلام يقود الحياة/ 115 ـ 140، بتصرف. وانظر: صائب عبد الحميد: الشهيد محمد باقر الصدر من فقه الأحكام إلى فقه النظريات/ 194 ـ 199، الطبعة الأولى، 2008م، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بتصرف.

بها حسب علمه الذي لا يحيط بجميع جوانب المصالح والمنافع، الأمر الذي قد يوجه الإرادة إلى خلاف الحكمة والمصلحة، فيقع في الفساد.

وحين عرف الملائكة ذلك، تعجبوا من خلافة هذا النوع من الخلق الذي يسفك الدماء ويفسد في الأرض لله تعالى، فسألوا الله سبحانه (عن طريق النطق، أو الحال، أو غير ذلك) أن يتفضل عليهم بإعلامهم عن ذلك وبيان الحكمة لهم.

2. كان الجواب لهم على ذلك، هو بيان وجوب الخضوع والتسليم، لمن هو بكل شيء عليم، لأن هذا هو موقف جميع المخلوقات تجاهه، لأنه العالم المحيط بكل المصالح والحكم.

على أن هذا النوع من الخضوع والتسليم الذي ينشأ من معرفة الملائكة بإحاطة الله بكل شيء، قد لا يذهب الحيرة ولا يزيل الاضطراب، وإنّما تسكن النفس بإظهار الحكمة والسر الذي يختفي وراء الفعل الذي حصل منه تعجب الملائكة.

لذلك تفضل الله سبحانه على الملائكة، بأن أوضح لهم السر، وأكمل علمهم ببيان الحكمة في هذا الخلق، فأودع في نفس آدم عليه السلام وفطرته (علم جميع الأشياء من غير تحديد ولا تعيين) الأمر الذي جعل لآدم عليه السلام امتيازاً خاصاً به وهو: الخلافة عن الله في الأرض.

3. ويظهر هذا الامتياز حين نقارن بين الإنسان وبين المخلوقات لله سبحانه، فقد نطق الوحي، ودلّ العيان والاختبار على أن الله تعالى خلق العالم أنواعاً مختلفة، وخصّ كل نوع منها بقدرات ومواهب، ولكن الإنسان مع ذلك يختلف عنها.

فالملائكة ـ الذين لا نتمكن من معرفة حقيقتهم إلّا عن طريق

الوحي ـ لهم وظائف محدودة ـ كما دلّت الآيات والأحاديث ـ فهم يسبحون الله ليلاً ونهاراً، وهم صافون، ويفعلون ما يؤمرون، إلى غير ذلك من الأعمال المحدودة.

وما نعرفه بالنظر والاختبار عن حال الحيوان والنبات والجماد، فإنها بين ما يكون لا علم له ولا عمل كالجماد، أو يكون له عمل معين يختص به نفس دون أن يكون له علم وإرادة، ولو فرض أن له علماً أو إرادة فهما لا أثر لهما في جعل عملهما مبيناً لحكم الله وسنته في الخلق، ولا وسيلة لبيان أحكامه وتنفيذها.

فكل حي من الأحياء المحسوسة والغيبية ـ عدا الإنسان ـ له استعداد محدود وعلم إلهامي محدود، وما كان كذلك لا يصلح أن يكون خليفة عن الذي لا حد لعلمه وإرادته.

وأما الإنسان فقد خلقه الله ضعيفاً وجاهلاً، ولكنه على ضعفه وجهله، فهو يتصرف في الموجودات القوية، ويعلم جميع الأسماء بما وهبه الله من قدرة على النمو والتطور التدريجي في إحساسه ومشاعره وإدراكه، فتكون له السلطة على هذه الكائنات، يسخرها ثم يذللها بعد ذلك كما تشاء قوته الغريبة التي يسمونها (العقل) ولا يعرفون حقيقتها ولا يدركون كنهها، فهذه القوة نجدها تغني الإنسان عن كل ما وهب الله للحيوان في أصل الفطرة والإلهام من الكساء والغذاء والأعضاء والقوة.

فالإنسان بهذه القوة غير محدود الاستعداد ولا محدود الرغائب ولا محدود العلم ولا محدود العمل. وكما أعطاه الله تعالى هذه المواهب، أعطاه أحكاماً وشرائع حدد فيها أعماله وأخلاقه، وهي في الوقت نفسه تساعده على بلوغ كماله لأنها مرشد للعقل الذي كان له كل تلك المزايا.

وبهذا العلم كله استحق الإنسان خلافة الله في الأرض، وهو التصرف وخلق المخلوقات بها، ونحن نشاهد في عصرنا آثار هذه الخلافة بما فعله الإنسان من تطوير وسيطرة وتصرف في الكون.

وحين أودع الله في فطرة آدم عليه السلام الأشياء من غير تحديد، عرض الأشياء على الملائكة وأطلعهم عليها اطلاعاً إجمالياً، ثم طالبهم بمعرفتها والإنباء بها، فإذا بهم يظهرون التسليم والخضوع والعجز والاعتراف.

وعند ذلك أمر الله آدم عليه السلام أن ينبئهم بالأشياء ففعل، وذلك لتتكشف لهم الحقيقة بأوضح صورها وأشكالها[1].

رابعاً: تصور العلامة سيد قطب

وتبتني إيحاءات وتصورات العلامة سيد قطب بجملة من الأمور، وهي:

1. تبتدئ تلك القيمة الكبرى التي يعطيها التصور الإسلامي للإنسان أنه مخلوق ليكون خليفة في الأرض. ومن هذه النظرة للإنسان تنبثق جملة اعتبارات ذات قيمة كبيرة في عالم التصور، وفي عالم الواقع على السواء، وأول اعتبار من هذه الاعتبارات هو أن الإنسان سيد هذه الأرض، ومن أجله خلق كل شئ فيها، فهو ـ إذن ـ أعزّ وأكرم وأغلى من كل شئ مادي، ومن كل قيمة مادية في هذه الأرض جميعاً، ولا يجوز ـ إذن ـ أن يستعبد أو يستذل لقاء توفير قيمة مادية، أو شئ مادي، أو إنتاج شيء مادي، أو تكثير أي عنصر مادي. فهذه الماديات كلها مخلوقة، أو مصنوعة من أجله،

---

(1) نقلاً عن: السيد محمد باقر الحكيم: المجتمع الإنساني في القرآن الكريم/ التفصيل في بيان الطلب، 48 ـ 49.

من أجل تحقيق إنسانيته، ومن أجل تقرير وجوده الإنساني، فلا يجوز إذن أن يكون ثمنها هو سلب قيمة من قيمه الإنسانيه، أو نقص مقوّم من مقوّمات كرامته.

والاعتبار الثاني هو أن دور الإنسان في الأرض هو الدور الأول، فهو الذي يغيّر، ويعدّل في أشكالها، وفي ارتباطاتها، وهو الذي يقود اتجاهاتها ورحلاتها، وليست وسائل الإنتاج، ولا توزيع الإنتاج هي التي تقود الإنسان وراءها ذليلاً سلبياً كما تصوره المذاهب المادية التي تحقّر من دور الإنسان وتصغّر بقدر ما تعظم في دور الآلة وتكبّر.

2. أن النظرة القرآنية تجعل من هذا الإنسان بخلافته في الأرض، عاملاً مهماً في نظام الكون ملحوظاً في هذا النظام. فخلافته في الأرض تتعلق بارتباطات شتى مع السماوات ومع الرياح ومع الأمطار، ومع الشموس والكواكب. وكلها ملحوظ في تصميمها وهندستها إمكان قيام الحياة على الأرض، وإمكان قيام هذا الإنسان بالخلافة.

كذلك ينشأ عن نظرة الإسلام الرفيعة إلى حقيقة الإنسان، ووظيفته إعلاء القيم الأدبية في وزنه وتقديره، وإعلاء قيمة الفضائل الخلقية، وتكبير قيم الإيمان والصلاح، والإخلاص في حياته، فهذه هي القيم التي يقوم عليها عهد استخلافه.

وهذه القيم أعلى وأكرم من جميع القيم المادية. هذا مع أن من مفهوم الخلافة تحقيق هذه القيم المادية، ولكن بحيث لا تصبح هي الأصل، ولا تطغى على تلك القيم العليا.

3. وفي التصور الإسلامي إعلاء من شأن الارادة في الإنسان فهي مناط العهد مع الله، وهي مناط التكليف والجزاء، إنه يملك

الارتفاع على مقام الملائكة يحفظ عهد ربّه عن طريق تحكيم إرادته، وعدم الخضوع لشهواته، والاستعلاء على الغواية التي توجّه إليه، بينما يملك أن يُشقي نفسه، ويهبط من عليائه بتغليب الشهوة على الارادة، والغواية على الهداية، ونسيان العهد الذي يرفعه لمولاه. وفي هذا مظهر من مظاهر التكريم لاشك فيه، يضاف إلى عناصر التكريم الأخرى.

4. المشيئة العليا هي التي تريد أن تسلم لهذا الكائن الجديد في الوجود زمام هذه الأرض، وتطلق فيها يده، وتكل إليه إبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين، والتحليل والتركيب، والتحويل والتبديل، وكشف ما في هذه الأرض من قوى، وطاقات، وكنوز، وخامات، وتسخير هذا كله ـ بإذن الله ـ في المهمة الصعبة التي وكلها الله إليه.

لقد وهب الله هذا الكائن الجديد من الطاقات الكامنة والاستعدادات المذخورة مما في هذه الأرض. ووهبه من القوى الخفية ما يحقق المشيئة الإلهية. فهناك وحدة، أو تناسق بين النواميس التي تحكم الأرض ـ وتحكم الكون كله ـ والنواميس التي تحكم هذا المخلوق، وقواه، وطاقاته، كي لا يقع الصدام بين هذه النواميس وتلك، وكي لا تتحطم طاقة الإنسان على صخرة الكون الضخمة.

إذن.. فمنزلة هذا الإنسان منزلة عظيمة، في نظام الوجود على هذه الأرض، وهو التكريم الذي شاءه له خالقه الكريم.

لقد وهب هذا الإنسان سرّ المعرفة، كما وهبه سرّ الإرادة المستقلة التي تختار الطريق... إن ازدواج طبيعته، وقدرته على تحكيم إرادته في شق طريقه، واضطلاعه بأمانة الهداية إلى الله بمحاولته الخاصة، إن هذا كله، بعض أسرار تكريمه...

عقد الاستخلاف هذا قائم على تلقي الهدى من الله، والتقيّد بمنهجه في الحياة، ومفرق الطريق فيه أن يسمع الإنسان، ويطيع لما يتلقاه من الله[1].

خامساً: تصور أستاذنا آية الله الشيخ مصطفى الهرندي

وتبتني نظريته وتصوره (دام ظله) على ما يلي:

إن الآيات التي تعرضت لمسألة خلق آدم عليه السلام آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. وقد تعرضت هذه الآية المباركة مضافاً لخلقه عليه السلام، إلى الوظيفة التي حددها الله تبارك وتعالى له عليه السلام، وإلى الصلاحيات التي منحها تعالى له عليه السلام.

وانطلاقاً من مصطلح الخليفة في هذه الآية المباركة نتمكن من تحديد الصلاحيات المعطاة لسيدنا آدم عليه السلام وهل أنها صلاحيات خاصة أو أنها صلاحيات عامة تشمل دائرة التكوين والتشريع؟

ويتوقف الاستنتاج من هذه الآية المباركة على بيان مقدمتين:

الأولى: الولاية على قسمين:

1. الولاية الحقيقية والذاتية. وهي ثابتة للذات المقدسة جلت وعلت.

2. الولاية الجعلية. وهي الممنوحة من قبله تعالى لأشخاص

---

(1) يلاحظ لذلك مفصلاً: سيد قطب: في ظلال القرآن/ 1، 56 ـ 61، بتصرف.

معينين وهم (الرسل والأنبياء وأئمة أهل البيت ﷺ).

يستبطن هذان القسمان من الولاية.. أن ليس لأحد أن يتصرف في نفوس الآخرين وفي أموالهم إلا بأمر منه تعالى. كما أنه ليس لأحد أن يتصدى للتشريع والتقنين إلا من قبله تعالى. ذلك، لأن الولاية الحقيقية كما قلنا ثابتة له تعالى. وتثبت لغيره بالنص والجعل من قبله تعالى. فإذا تمّ النصب والجعل وجاءت الأدلة والبراهين عليها تثبت الولاية للمنصوب بحسب ما تدل عليه النصوص.

الثانية: وتتمحور حول تحديد المراد من الخليفة في هذه الآية المباركة. ومن خلال استعراض معاجم اللغة لمصطلح الخليفة واستنطاقها نجد.. أن هناك تناسباً بين المستخلِف والمستخلَف. وأن المستخلَف يريد أن يقوم مقام المستخلِف. ولا شك أن الاستخلاف عن الله تبارك وتعالى إنما يثبت لأناس تتواجد فيهم صفات معينة وخاصة.

إذا ثبتت هاتان المقدمتان نقول:

إن الآية المباركة قالت: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، ولما كانت الخلافة متنوعة ومختلفة فقد يكون الإنسان خليفته تعالى في مجال التكوين. وقد يكون في مجال التشريع فقط. وقد يكون مجال السلطة السياسية فحسب. وقد تكون خلافته مطلقة في مجال التكوين والتشريع والسلطة السياسية.

ومن هنا، نجد أن الآية المباركة لم تقيّد الخلافة في مرتبة وشكل معين. وإنما طرحتها من دون التقييد. فالخلافة الثابتة لسيدنا آدم عليه السلام ـ وهو أول من وطأ الأرض ووجد عليها ـ الخلافة المطلقة التي تجمع بين السلطات الثلاث.

ومن عدم التحديد وعموم الاستخلاف لسيدنا آدم ﷺ. نستكشف أيضاً أن القضية لا تنحصر به ﷺ بل تعم جميع الرسل والأنبياء والأئمة ﷺ. لأن نفس العلل والأسباب التي دعت إلى استخلافه ﷺ موجودة في غيره من الرسل والأنبياء والأئمة ﷺ.

فعند قراءة الآيات المباركة والتي استعرضت مسألة استخلاف سيدنا آدم ﷺ بدقة وإمعان وتروّ ومع الاعتماد على الروايات الصادرة عن أئمة أهل البيت ﷺ ومحاولة استنطاقها والاستفادة منها بنصها وبمضامينها الخاصة من دون الارتباط بالأمور الأخرى نستكشف أن الاستخلاف كان مطلقاً ولم يكن تشريعياً فقط أو تكوينياً فقط أو سياسياً فقط بل كان عاماً.

ونستكشف من آية الاستخلاف أن الكائن الأول الذي استخلفه الله تعالى في الأرض كائن يتمتع بميزة الخلافة، وكان يمثل الله تبارك وتعالى في الأرض مع الفاصل الموجود بين الموجود الممكن وبين الموجود الواجب. فإن الواجب جلّ وعلا يتمتع بهذه المزايا الكبيرة من طريق ذاته المقدسة بينما الممكن لا يتمكن من تحصيل هذه الخصائص إلا من طريق الفيض الإلهي الحاصل من الذات المقدسة.

بعد تحقق الاستخلاف من قبله تعالى في الكرة الأرضية فإدارة عالم التكوين لا تكون إلا عن طريق الخليفة، وأن الخليفة قبل الخلق ومع الخلق وبعد الخلق. وهذه ضرورة ثابتة لعالم التكوين حدوثاً وبقاءً لأنه من غير المعقول بقاء عالم التكوين من دون الخليفة التي يمثل الله تعالى في الأرض[1].

---

(1) لاحظ لذلك حسن بحر العلوم: جدلية الثيوقراطية والديمقراطية/ 115 ـ 132، الناشر: دار الزهراء، 1428هـ.

المحصلة:

وبعد استعراض كلمات الأعلام يمكن القول:

إن مفهوم الخلافة والخليفة في الاستعمال القرآني كان محوره الأساس سيدنا آدم ﷺ، وفي هذا الاستعمال، كان واضحاً فيه معنى النيابة عن الله في إعمار الأرض وإدارتها، وفي هذا شمول البشرية في هذه النيابة.

يقول الشهيد الصدر (رحمه الله): (إذن نحن أمام مفهوم قرآني مهم وحساس، وهو أن البشرية حملت مسؤولية إلهية عبر قانون وسنة عبّر عنها القرآن (بالجعل) تتعلق بالمجتمع البشري، ككل ويشير بذلك إلى سعي البشرية عبر طبيعة تكوينها لاستثمار الأرض وإعمارها والسيطرة عليها والتمكن من ادارتها. عبر خط الخلافة)[1].

والبشرية في هذا المجال تتوارث وتتبادل تجارب ومعلومات عبر الاجيال وعبر الأوطان والمجتمعات موضوعها خلافة الأرض أي السيطرة عليها والتمكن من استثمارها وإعمارها وبنائها، وإذا أرادت ـ البشرية ـ أن تتحدى هذه السنّة والقانون الإلهي والجعل الرباني، فإن تحدي قانون الخلافة وإن كان ممكناً لكنه لفترة وزمن محدود لأن الجعل الالهي وطبيعة هذه السنّة التي سمحت بالتحدي لا تسمح بتحديها دائماً أو تغييرها أو محوها، لذا فسوف تتغلب إرادة الإعمار والسيطرة والتمكن على الأرض وما يستبطنهُ معنى نيابة الله في إدارة الأرض وإعمارها واستثمارها ونموها، وإلا سوف تتخلف هذه السُنة بانتهاء هذا المجتمع المتخلف عن النمو

---

(1) يلاحظ لذلك المعنى تفصيلاً السيد محمد باقر الصدر: الإسلام يقود الحياة/ 133.

ليأتي مجتمع آخر، يسير قدماً نحو مزيد من العلم والقدرة لاستثمار الأرض واعمارها، نيابة عن الله وفق مفهوم وخط الخلافة القرآنية.

إن مسيرة الإنسانية نحو الله لا تتوقف ولا تنتهي في حدود، فهي مسيرة متصاعدة نامية باقية حية فاعلة، وذلك بسبب الحاجة إليها. فالإنسان منذ القدم يبحث عمن خلقه وجعله خليفة في الأرض ينظم حياته وعلاقاته ويعيش في أمن واستقرار يستثمر خيراتها ومواردها لصالحه كي تستمر البشرية في حياتها جيلاً بعد جيل حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا. وهذا ما نجده مجسداً في العهد الالهي والمسؤولية الإلهية التي حمّلها للبشرية جمعاء عبر نيابتها عن الله واستخلافها من قبله سبحانه وتعالى على الأرض، في حركة الإنسان التاريخية نحو مزيد من العلم ومزيد من القدرة ومزيد من السعة ومزيد من الرفاه والتمكن.. وهي مسيرة إنسانية تكاملية متصاعدة تضيع وتنعدم فيها فوارق الجنس واللغة والفكر والعنصر، لأنها مشترك إنساني عبّر عنها القرآن ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ وذلك كاشف عن أنها سُنة وقانون إلهي يفرض النمو المستمر للبشرية وأفرادها عبر تصاعد مسيرتها المدنية الإعمارية من خلال التجربة والعلم وبناء الدول والمجتمعات والانتاج الزراعي والصناعي والعمل اليدوي والنشاط التجاري وغير ذلك من أنشطة الإنسان التي تصبح ضرورة للحياة والنمو والاعمار.

المبحث الثالث
مهام الاستخلاف

وبعد أن تعرفنا على مصطلح الخليفة والاستخلاف، وقررنا أن الإنسان هو خليفة الله في الأرض، علينا أن نستعرض أهم مهام الاستخلاف، وهي:

أ. العدل

وهو أول مهام استخلاف الإنسان على الأرض، فالإنسان مطالب بتحقيق العدل بين بني البشر جميعاً. فالعدل صفة من صفات الله ـ سبحانه ـ الذي خلق الإنسان. والعدل مقرّر في المساواة في الأصل بين بني الإنسان قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[1]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[2]. وقال ﷺ: (أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب...)[3]. كما وأن العدل مقرّر في التشريع في الحقوق والواجبات، في الجزاء ثواباً أو عقاباً. ولا يمكن أن نتصور أن الله خلق الإنسان ليكون خليفة في الأرض بدون أن يكون هناك عدل يحق الحقوق ويبين حق كل فرد على قدم المساواة.

(1) سورة النساء: الآية 1.
(2) سورة الحجرات: الآية 13.
(3) العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ 73، 250.

كل ذلك يدعو الإنسان أن يحقق العدل في حياته: مع نفسه، ومع الآخرين.

وفكرة العدل موجودة في كل الأديان السماوية تدعو أتباعها، ومعتنقيها أن يحققوها في حياتهم، ويسعوا إلى تحقيقها في المحيط الاجتماعي، بل يحاربون من أجلها ويقدّمون التضحيات في سبيل تقريرها، وتطبيقها طاعةً لله، وسعياً إلى تحقيق سننه على الأرض.

وإذا تحقق العدل على الأرض وفي حياة الإنسان فإن ذلك تحقيق لجانب مهم من فكرة الاستخلاف التي منحها الله ـ سبحانه ـ للإنسان ليعمر الأرض، ولا إعمار للأرض إلّا بقيام الاستقرار، ولا استقرار إلّا بقيام العدل الذي يعيد التوازن إلى حياة الإنسان، وينفي عنها كل أنواع الصراع وآثاره المدمّرة.

فالعدل ـ إذن ـ من مهام الاستخلاف التي يطالب بها اللهُ الإنسان، وعلى الإنسان أن يحقّقه وفق الشروط التي وضعها الله. أي: وفق أحكامه وتشريعاته، ومفاهيمه التي تنسجم مع فطرة الإنسان التي فطره الله عليها.

ب. عمارة الأرض

عمارة الأرض تعني بالمفهوم الديني إعمارها مادياً وفكرياً. فالجانب المادي يشمل الحركة لإنماء الأرض زراعياً، وصناعياً، وبيئياً. فتنمى وتفجر طاقات الأرض بالزراعة، وانتاج الغذاء الضروري للإحياء والحياة، وتوفير الطعام والشراب لمن يحتاجه ويطلبه، وصناعياً بانتاج وابداع الآلات الضرورية التي تسهل على الإنسان ابداعه وانتاجه وتيسر عليه حياته وكسب معاشه، وتوفر له

الرخاء والأمان والطمأنينة في عيشه، وتسخر له الأشياء من حوله. ولذلك أشرنا من قبل إلى فلسفة الإمام علي عليه السلام في ضرورة اعمار الأرض وعدم التركيز على المال المستخرج على غلتها لأن هذه الغلة هي أصل الحياة لجميع من يحتاج إليها.

اما إعمار الأرض فكرياً، فيكون بنشر عقيدة التوحيد ومايترتب عليها من طاعة الله والعمل بأحكامه والتزام حدوده، وإعلاء كلمة العدل والحق، وسيادة مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات.

وهكذا تكون الخلافة الربانية للجماعة البشرية قادرة على أن تقضي بتطبيقها على كل العوائق المصطنعة، والقيود التي تجمد الطاقات البشرية، وتهدد امكانات الإنسان. وبهذا تصبح فرص النمو متوفرة توفراً حقيقياً. والنمو الحقيقي في مفهوم الإسلام: أن يحقق الإنسان الخليفة على الأرض في ذاته تلك القيم التي يؤمن بتوحدها جميعاً في الله ـ عز وجل ـ الذي استخلفه.

فالخلافة ـ إذن ـ حركة دائبة نحو قيم الخير والعدل والقوة، وهي حركة لا توقف فيها، وعلى الجماعة التي تتحمل مسؤولية الخلافة أن توفر لهذه الحركة الدائبة كل الشروط الموضوعية، وتحقق لها منهاجها اللازم، وتصوغ العلاقات الاجتماعية على أساس الركائز الأساسية للخلافة الربانية.

ج. العمل لأجل الإنسان

الإنسان بناء الله، خلقه، وكرّمه، و فضّله على كثير ممن ومما خلق، ثم استخلفه في الأرض، وحمّله الأمانة قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا

وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[1]، وأناط به المسؤولية التي تقتضي الحرية والاختيار، وبذلك جعله مسؤولاً عن عمله: خيراً أو شراً.

واستخلاف الإنسان ـ يعني فيما يعنيه ـ بناء الإنسان عقلاً وروحاً، قيماً وسلوكاً، قولاً وعملاً، فهو المستخلَف، وهو الهدف من عملية الاستخلاف كلها، فسخر له الكون بقوانينه وسننه، ووهب له العقل المفكّر والمدبّر، وهيأ له الإمكانات الجسمية والنفسية والعقلية للسيطرة على ما حوله وتوجيه ذلك كله لمصلحته، وممارسته مهام خلافته، وتحقيق الهدف من وجوده.

والإنسان لايمكن له تحقيق ذلك كله إلا إذا استشعر وجوده الإنساني، وأحسّ بإنسانيته الكامنة في عقله وروحه وجسده وإلا إذا هيأت له الفرص لذلك.

وقد هيأ له ذلك من خلال المفاهيم العظيمة التي جاءت بها شرائع السماء.

والإنسان لا يحقق إنسانيته إلا من خلال ارتباطه بخالقه وتمثل قيمه، ومفاهيمه، والتزامه بأحكامه، ومعرفة حدوده: حلالاً أو حراماً.

والإنسان لا يحقق إنسانيته إلّا بالتواصل الإجتماعي مع أخيه الإنسان ـ مطلق الإنسان ـ محبةً ورحمةً، وتسامحاً، وتعاوناً، وتكافلاً، وتفاهماً، واحتراماً. فالإنسان كائن اجتماعي يحتاج إلى غيره ولا يمكن أن يعيش وحيداً أو يستغني عن الآخرين، سواء من الناحية الإجتماعية أو من الناحية المادية ولذلك ظهر تقسيم العمل وظهرت المهن المختلفة والمهارات المتعددة.

---

(1) سورة الأحزاب: الآية 72.

والإنسان لا تتكامل إنسانيته إلا بإيمانه بالمثل العليا التي قررها الله، والعمل لأجلها. . . (فصفات الله ـ تعالى ـ وأخلاقه من: العدل، والعلم، والقدرة، والرحمة بالمستضعفين، والإنتقام من الجبارين هي مؤشرات في مجتمع الخلافة، وأهداف للإنسان الخليفة، فقد جاء في الحديث الشريف (تخلقوا بأخلاق الله)[1]، ولما كانت هذه القيم ـ على المستوى الإلهي ـ مطلقة، ولا حدّ لها، وكان الإنسان الخليفة كائناً محدداً، فمن الطبيعي أن تتجسد عملية تحقيق تلك القيم إنسانياً في حركة مستمرة نحو المطلق، وسير حثيث إلى الله، وكلما استطاع الإنسان من خلال حركته أن يتصاعد في تحقيق تلك المثل، ويجسد في حياته بصورة أكبر، وأكبر عدالة الله وعلمه وقدرته وجوده ورحمته ورفضه للظلم والجبروت، سجّل بذلك انتصاراً في مقاييس الخلافة الربانية واقترب نحو الله في مسيرته الطويلة التي لا تنتهي إلا بانتهاء شوط الخلافة على الأرض)[2].

ولا تتحقق إنسانية الإنسان كاملة إلا بالعمل لأخيه الإنسان وبنكران ذات، وبإيثار كريم.

كما ولا تتحقق إنسانيته ولا تتكامل إلا بممارسة دوره الحقيقي والفاعل ضمن مهمة الخلافة عن الله وذلك لا يكون إلا بإعمار الأرض وإشاعة مفاهيم الخير والعدل والتوحيد بين بني الإنسان، مستهدفاً في ذلك مصلحة أخيه الإنسان ـ مطلق الإنسان ـ ومكرماً إنسانيته، وإعلاء شأنها على كل شأن.

---

(1) محمد الريشهري: ميزان الحكمة/ 4، 3339.

(2) صائب عبد الحميد: الشهيد محمد باقر الصدر من فقه الأحكام إلى فقه النظريات/ 198.

فالله خلق الإنسان، وسخّر له ما في السموات والأرض، وأعلى شأنه، وأكرم مقامه، فلابد للإنسان أن يتخلق بأخلاق الله، ويستجيب لأمر الله في تكريم الإنسان وانصافه بالعدل والمساواة ومنحه حرية الاختيار، ورفع القهر عنه. وهذا ما يحقق إنسانيته، ويحقق مفاهيم شرائع السماء، ويجلب رضا الله سبحانه.

د. السلام

السلام اسم من أسماء الله الحسنى، وبه ينتظم السلام على الأرض قال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[2].

والسلام الذي قرره الله ـ سبحانه ـ بشروطه، وظروفه، هو الذي يحقق مهام الاستخلاف على الأرض. فالسلام في شريعة الله ـ الأديان جميعاً ـ يقوم على العدل، والمساواة وإلقاء كل دواعي الصراع، ويقوم أيضاً على القناعة، والاقتناع والتسامي، والترفّع عن دنايا الحياة الدنيا. والسلام يقوم على احترام الآخر وحرمة دمه وماله وعرضه، وحرمة الاقتتال بين البشر قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[3]، والتعرف نتيجة التعارف، والتعرف سبب التواصل، والتواصل قنوات للحوار والتفاهم والتلاقي. وهذا هو السلام الاجتماعي.

---

(1) سورة الأنفال: الآية 61.

(2) سورة البقرة: الآية 208.

(3) سورة الحجرات: الآية 13.

وكل الأديان السماوية تسعى إلى تحقيق السلام الاجتماعي بدءاً من تحقيق السلام مع النفس. وليس كالدين يحقق السلام النفسي قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[2].

والذكر.. هو ذكر الله وقدرته والتوكل عليه، والإيمان بقدره وقضائه والاقتناع برزقه، والعمل بأحكامه. كل ذلك يلغي دواعي الصراع، ويمهّد لأرضية العيش المشترك الذي يقود إلى السلام بين بني الإنسان.

وهذا السلام هو الجوّ المشترك الذي يهيئ النفوس ويكرّس الجهود للبناء والإعمار الذي هو هدف الاستخلاف وهو المعنى الأكبر لعبادة الله من خلال تطبيق شرائعه، وأحكامه، ووعي مفاهيمه، وقيمه، وتجسيد ذلك سلوكاً متكاملاً يبني ولا يهدم.

هـ- التنمية ورفاه الإنسان

وحين يطمئن الإنسان إلى وجود العدل والسلام، يشعر بالأمان، ويتعمّق إحساسه بالعدل، وعدم الغبن، وتنتفي في نفسه مشاعر الاضطهاد، والخوف، والشعور بالقهر، وتنتفي - عند ذاك - دواعي الصراع، فينصرف الإنسان إلى تنمية نفسه وبنائها، وتنمية قواه الذاتية، وإطلاق طاقاته الحبيسة، ويلتفت إلى ما حوله، فيسخّر طاقات الطبيعة، ويستثمرها، بل ويستغلها في تنمية طاقاته النفسية

(1) سورة الرعد: الآية 28.

(2) سورة الحج: الآية 35.

والعقلية، والعملية، وإلى خلق رفاه معيشي، تكون كل أسباب الحياة مهيّأةً له، وكل أدوات الرفاه مكفولة له.

والحياة التي نعيشها في عصرنا الحاضر دليل على قدرة الإنسان، ورغبته أن يسيطر على قوى الطبيعة، وقوانينها، وتسخيرها لتذليل مصاعب الحياة من حوله، وتحقيق الرفاه والطمأنينة والسعادة. وهذا لا يتنافى مع الدين وقيمه وأحكامه، بل الدين يحضّ عليه، ويأمر به، ويوجّه الإنسان نحوه شرط ألا يخرج عن سنن الله الكونية وقوانينه الطبيعية، وشرط ألا يقع ظلم على الإنسان، فتسخّر قوى الطبيعة لتحقيق مآرب شريرة كما فعل بعض الطواغيت حين سخّر بعض الانجازات العلمية لتقوية تسلطه الطاغوتي على بني البشر فاخترع أسلحة التدمير كالقنابل الذرية والنووية لفرض إرادته على البشرية من غير حق.

إن هذا الأمر محرّم في الإسلام وفي كل أديان السماء. فالأديان السماوية جاءت لخير الإنسان، ولتحقيق سعادته في هذه الأرض وجعلها طريقاً لسعادة الآخرة.

إن الإسلام ـ ومثله بقية الأديان السماوية ـ يؤمن بأن الإنسان خليفة الله في الأرض، خلقه لإعمارها وسخر له الله كل قوانين الطبيعة لانجاز هذه المهمة. فالإنسان مكلّف بالإعمار لا بالتخريب، وبالتنمية لا بالتوهين، وبتحقيق سعادته وسعادة بني جلدته بكل الوسائل والأدوات التي وهبها الله له. وبذلك يكون عنصر بناء لا هدم، وخير لا شرّ، وعدل لا ظلم، ومحبّة لا بغض، وتسام لا اتضاع، وغيرية لا أنانية، وإنسانية لا حيوانية وحشية.

و. تعظيم كلمة الله

إن شرط تحقيق الاستخلاف، وتحقيق مهامه يكون بتعظيم كلمة الله، وكلمة الله هي التوحيد، والتوحيد يعني الإيمان بالله الواحد، والاستجابة لأوامره، ونواهيه. أي: الإيمان بقيم الأديان السماوية، ومفاهيمها، وأحكامها، والعمل بها والدعوة إليها وتطبيقها. وهذا معنى قول رسول الله ﷺ: (قولوا لا إله إلّا الله تفلحوا)[1]، ولكن بشرطها وشروطها.

فالإيمان بوجود الله، وبوحدانيته يستتبع الإيمان بدينه الذي أنزل، والعمل بأحكامه: بحلالها وحرامها، وأوامرها ونواهيها. والالتزام بحدودها قال تعالى: ﴿...تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾[2]، ومن تعظيم كلمة الله: إقامة العدل كما أراده الله. وإشاعة السلام كما قرّره الله، وتقديس الإنسان كما بناه الله، والسعي لاقامة سعادة الإنسان كما دعا إليها الله، وأن نجعل كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى.

إننا نرى في مجتمعاتنا المعاصرة كثيراً من الدعوات إلى العدل والسلام وتحقيق رفاهية الإنسان. لكنها دعوات منقطعة عن مفاهيم الخالق ـ سبحانه ـ وقيمه، وأحكامه، تعلي من شأن الطبائع الغرائزية، وتنتهك حرمة الإنسان. بوسائل حيوانية بدعوى الحرية، وبدعوى المساواة، وبدعوى حقوق الإنسان، وما هي كذلك فالإنسان حرٌّ حينما يتحرّك في دائرة طاعة الله. فالعبودية لله أعلى درجات الحرية، ومراعاة الفطرة التي فطر الله عليها الإنسان، ورسم له دوره في الحياة، هي عين المساواة. كما أن الأديان

---

(1) العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ 18، 202.

(2) سورة البقرة: الآية 229.

السماوية راعت مبدأ المساواة مفهوماً وتطبيقاً فقد راعت حقوق الإنسان: ذكراً أو أنثى. حين احترمت طبيعته، واستجابت لاحتياجاته الغرائزية، واشبعتها، وهذّبتها من دون قسر أو إكراه. وبذلك أعلت من شأن الإنسان، وجعلته في منزلة سامية يتساوى فيها على غرائزه، وحيوانيته. وقد أعلت من شأن العقل ـ وهو من مزايا الإنسان ـ وأعلت من شأن الروح وجعلتها ميزاناً يقاس به السلوك الإنساني ترفعاً أو اتضاعاً، وحبّبت إليه المثل العليا التي يترقّى بها في مدارج الإنسانية. كل ذلك انبثاقاً من أنظمة فكرية مفاهيمية مترابطة متساوقة تلتقي عند رضا الله وطاعته، ورحمته، وتنطلق إلى بناء إنسان كريم يعي مفهوم الاستخلاف، ويسعى إلى تحقيق مفاهيمه، مستجيباً بذلك لكلمة الله التي هي التوحيد، والتي تعني طاعته بالالتزام بحدوده: حلالاً أو حراماً.

ومن جميع ما تقدم يمكن القول:

تقرّ الأديان جميعاً بأن الكون مخلوق، وتقرّ جميعاً أنه سبحانه وتعالى الخالق المبدع، وبموجب الخلق والإيجاد فهو المالك، ولأنه المالك المطلق الوحيد فإنه المتصرف بخلقه وملكه. بيد أنه فوّض للإنسان أن يتصرف في هذا الكون على وفق ظوابط الإنابة بوصفه خليفة...

والخلافة: هي ـ كما أسلفنا القول ـ قيام شئ مقام الآخر، لا تتم إلا بكون الخليفة حاكياً للمستخلِف في جميع شؤونه الوجودية، وآثاره، وأحكامه، وتدابيره، بما هو مستخلف فيه[1].

ويمكن أن ينسحب هذا التكريم، وهذا الاستخلاف على

---

(1) السيد الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن/ 1، 116.

تصورات جميع الأديان السماوية، فتتوحد نظرتها للإنسان ولدوره على هذه الأرض، فيكون عامل توحد وتوحيد، لأن وحدة التطور تقود إلى وحدة الموقف.

وبهذا يرتفع الصراع بين الأديان وتنتفي أسبابه، وتتوجه جهودها المبعثرة المتقاطعة إلى هدف واحد، هو إعلاء كلمة الله: التوحيد، والدعوة إلى قيمه ومفاهيمه، وفضائله الخلقية، والعمل بها، ومواجهة دعوات الإلحاد، وما يترتب عليها من مواقف وتداعيات، وأفكار فهي بالضد من طبيعة الإنسان، ومصلحته ومستقبله.

إن فكرة الاستخلاف التي قررها الله سبحانه وتعالى خالق الحياة وموجد الإنسان، ومالك مصيره، قادرة على إعمار الأرض بالأمن والسلام، والإيمان والفضيلة، والرفاه والنماء، وهو ما تسعى إليه الأديان جميعاً مما يوحدها في سبيل واحد، وهدف واحد.

المحور الثالث

تشكيل منظومة القيم والفضائل التي تشترك بها كل الأديان

توطئة:

إن أهم ما يميز الأديان السماوية، ويربط بينها أنها تعبير عن الفطرة الإنسانية السليمة قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

هذه الفطرة السليمة هي النبع الذي يفيض بالفضائل الإنسانية النبيلة كالمحبة، والتسامح، والإيثار، والشعور بالآخرين، واحترام حقوقهم، وغيرها... وجاء الدين ـ عموم الدين ـ لكي يقنّن هذه الفضائل، ويثبّت حدودها، وينظّم صدورها بأحكام شرعية يحث على الالتزام بها، ويكافىء على فعلها، ويمتدح من يتحلى بها. لأن الحياة بدون فضائل تتحول إلى فساد دائم وإلى غابة بدون ضوابط.

هذا ما نراه في كل دين من الأديان، فهي ـ الفضائل الخلقية ـ مصدر وحدة بين الأديان، وتوحيد بين أتباعها، ودليل على صدور

---

(1) سورة الروم: الآية 30.

الدين من سراج واحد. ويكفي أن القران الكريم ـ كتاب المسلمين ـ امتدح الإبراهيمية السمحاء. ويكفي أن الله ـ سبحانه ـ قرر على لسان أنبيائه السابقين على الإسلام: أنهم مسلمون، قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[1]. فهذا الربط بين الأديان الأولى والأديان المتأخرة عنها يفيد أن الدين واحد، دعوته إلى التوحيد، على لسان أنبيائه جميعاً الذين يتخلقون بأخلاق الله ويدعون إلى فضائله.

فالتزام المسلم ـ مثلاً ـ بتعاليم السيد المسيح ﷺ هو من صلب عقيدته ودينه، والتزام المسيحي ـ مثلاً ـ بأخلاق النبي محمد ﷺ هو امتدادٍ لإيمانه بالسيد المسيح ﷺ فالأنبياء أخوة كلهم جاءوا بقيم وفضائل واحدة على امتداد الزمان والمكان.

اشتراك القيم والفضائل بين كل الأديان

لسائل أن يتساءل هل ما شرّعه الله من فضائل وقيم للأديان السابقة هي قيم لنا ـ أيضاً ـ أم لا؟

إن القيم والفضائل المشعّة في ضمير الإنسان وفي عمله، صادرة عن سراج واحد: هو الدين. بمفهومه العام، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ عاشق للفضائل محب لمكارم الأخلاق، داعٍ إلى الخير بكل صوره وأشكاله، مبغض للشر بكل أنواعه وألوانه. الله الخالق هو المشرع للدين، والدين فيض من وجوده الكريم، فلابد ـ إذن ـ من أن تكون الفضائل ومكارم الأخلاق واحدة متسقة مع إرادته

(1) سورة آل عمران: الآية 84.

وحكمته، متجاوبة مع أخلاقياته الكريمة التي أوحى بها ديناً، وخلقاً، وسلوكاً إلى أنبيائه ورسوله، ليبلّغوها إلى الإنسانية الكريمة التي هي خلقه وإرادته وفعله.

إذن: الفضائل الأخلاقية، والقيم العظيمة التي شُرّعت للأديان السابقة على الإسلام، هي فضائل للمسلمين، وقيم لهم يتحلّون بها، ويعملون بها. ولو استعرضنا حياة الأنبياء ﷺ جميعاً لرأيناها متطابقة في التعبير مع الفضائل التي شرّعها الله، ومع القيم التي قرّرها، ولو تدبّرنا الكتب السماوية التي أنزلها الله ـ كما أنزلت ـ لوجدناها تنطق بالحكمة ذاتها، وتدعو إلى الفضيلة عينها في كل دين. ولو تدبّرنا كتاب الله المجيد ـ القرآن الكريم ـ وهو أصدق تعبير عن كل ما أُنزل من فضائل، وقرّر من قيم، وشرّع من مكارم الأخلاق، لوجدنا هذه الفضائل والقيم واحدة في كل دين من الأديان، وفي كل أمة من الأمم التي دانت لحكم الله. وإذا رأينا بعض ممارسات أتباع الأديان السماوية، متعارضة مع ما أنزل الله في قرآنه المجيد وكتبه المقدسة، فإن ذلك انحراف عن الدين بمفهومه العام والخاص، وخروج عن أحكامه الثابتة، وإنّ ذلك من فعل ذوي الأهواء المنحرفة، والأمزجة المريضة، والمصالح الشخصية الضيقة، ابتدعوها، فجعلوها من الدين، وليست هي من الدين في شيء. فالزنى ـ مثلاً ـ محرّم في كل الأديان، لأنه رذيلة خلقية حرّمها الله. والربا ـ مثلاً ـ محرّم في كل الأديان لأنه رذيلة اجتماعية حرّمها الله، لكنا نرى أن بعض اتباع الأديان السماوية يمارسها، ويجد لها مسوغاً، ويجعلها جزءاً من شرعته المنحرفة.

ولكن لو رجعنا إلى أصل شرعته ـ كما أنزلها الله ـ لوجدناها محرّمة، يعاقب الإنسان على فعلها في الدنيا والآخرة.

فعلينا ـ والحال هذه ـ الرجوع إلى أصول الأديان ـ كما أنزلها

الله ـ فسوف نكتشف أن الحلال ـ في شرع الله ـ حلال إلى يوم القيامة، والحرام ـ في شرع الله ـ حرام إلى يوم القيامة. ذلك أن المشرع واحد، والهدف واحد، وسبيل الوصول إليه واحدة.

وإليك بعض الفضائل التي تشترك بها الأديان السماوية والتي تصلح أن تكون قاعدة اللقاء بين معتنقيها لكي تؤكد وحدة الدين، ووحدانية المشرّع، وأوحدية الهدف:

1. الإيثار من أجل الإنسان

الإيثار صفة خلقية سامية كريمة. امتدح الله ـ سبحانه ـ بها المؤمنين حين وصفهم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1]. وهي صفة لا توجد إلّا في الأفذاذ من بني الإنسان ممن يتحلّون بقدر عالٍ من الشعور بالمسؤولية تجاه غيرهم. وهي: نوعان: غريزية، ومكتسبة. فالغريزية كما في الوالدين تجاه أولادهم. والمكتسبة هي التي يكتسبها الإنسان من خلال تربية أخلاقية عالية ومن خلال إيمانه بمفاهيم وقيم سامية كمفاهيم الدين وقيمه.

وضدّها الأنانية التي هي تعبير عن حب الإنسان لنفسه، وإلغاء الآخر. وكل المآسي التي أحاقت بالإنسانية على مرّ العصور كان سببها أنانية الإنسان، وحبّ التسلط، وحب التملك، وإشباع الذات. فهي مرض وبيل، لا يشفى منه إلّا بالتداوي بالحكمة، ومعرفة الله، واتباع رضوانه.

ولو استعرضنا حياة الأنبياء والرسل. لوجدناها مليئة بصور

---

(1) سورة الحشر: الآية 9.

الإيثار وحب الغير - وكذلك حياة أصحابهم - فهي غنية بالتضحية من أجل الإنسان، وما حرصهم على تبليغ رسالات الله وتحمّل المشاق والأذى والمخاطر إلّا صورة من صور الإيثار من أجل الإنسان.

ولو بحثنا في حياة معتنقي الأديان السماوية في كل زمان، ومكان لوجدنا مُثُلاً عليا تعمر قلوب هؤلاء المؤمنين، ونماذج كريمة في الإيثار والتضحية من أجل الإنسان.

وهذا لا يقتصر على دين دون دين، وإنما يشمل كل الأديان السماوية، وخاصة هؤلاء الذين أدركوا غايات الدين، وتعمقوا في أهدافه، وأحاطوا بمراميه. فتنكروا لذواتهم، وترفّعوا عن أنانياتهم، وتساموا على مصالحهم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[1]. ذلك أنهم جعلوا رضوان الله غايتهم، وطاعته وسيلتهم، وحبّه منهجهم، فأحبوا الناس جميعاً، وجعلوا سعادتهم في تحقيق سعادة غيرهم. وما الشهادة في سبيل الله إلّا لون من ألوان الإيثار (والجود بالنفس أقصى - أسمى - غاية الجود) وجاء في الحديث الشريف عن النبي ﷺ: (والجود بالنفس أفضل في سبيل الله من الجود بالمال)[2].

والأديان السماوية جميعاً تشترك في الحضّ على التحلي بهذه الخليقة الكريمة، وتدعو إليها، وتربّي الناس، وتروّضهم بالتحلي بها. وهذا يصلح أن يكون أرضاً مشتركة يقف عليها الجميع في مواجهة دعوات الالحاد، والتحلل الخلقي، وممارسة الرذائل والشرور.

---

(1) سورة الإنسان: الآية 9.

(2) محمد الريشهري: ميزان الحكمة/ 1، 446.

إن الإيثار يمكن أن يكون صفة مشتركة بين أبناء الأديان السماوية وخاصة هؤلاء الذي بلغوا الغاية في فهم الدين ومراميه فإنهم قادرون على تمثّلها، والعمل بها، واليوم نرى كثيراً من اتباع الأديان ـ على اختلاف أديانهم ـ يتسابقون إلى فعل الخير وتقديم المال، والخدمات الصحية، وإطعام الجياع، ورعاية الأيتام وإنشاء الملاجئ، ودور العجزة، أو تخصيص الأموال لبعض المراكز العلمية لتطوير خدماتها لبني الإنسان. سواء من أجل صحته أو من أجل سعادته أو من أجل تخفيف معاناته في شيخوخته أو إسعاد الأطفال والعمل على إنقاذهم من الأمراض والبيئآت الملوثة. وهذا عين الإيثار وأنه لا يقتصر على دين دون دين، ولا يفعل ذلك إلّا ذو حظ عظيم.

2. المحبّة

المحبّة أساس الدين، وعليها يقوم، وبها يبني المجتمعات الإنسانية. والمحبّة مفهوم خالص مجرّد من كل الانحيازات المادية والمصلحية، ذلك أنه يبدأ من حبّ الله، وحبّ مخلوقاته: حجراً، وشجراً حيواناً وبشراً. هو حبّ لوجهه الكريم يفيض منه حبّ للوجود. فالإنسان يحبّ في الله، ويبغض في الله. أي: أن مقاييس الحبّ، تكون مقاييس إلهية، لا يبتغي المرء من ورائها مكسباً مادياً، أو مصلحياً، أو جزاءً دنيوياً.

الأديان السماوية كلها تشترك في خلق هذه العاطفة الكريمة في نفس الإنسان وتدعو إليها، وتحضّ على العمل بها، وجعلها الرابط الحقيقي بين بني الإنسان متجاوزة في ذلك رابطة العقيدة والدين. ذلك أنها المنفذ الوحيد لقلب الإنسان وبها يتحقق الأمن والسلام والعدل والاطمئنان وكل ما يترتب على هذه من مصالح دنيوية، وآثار أخروية.

والمسيحية الغراء شعارها المحبة (الله محبّة) وشعارها التسامح (من ضربك على خدّك الأيمن فاعرض عليه الآخر أيضاً)[1].

والإسلام الكريم بُني على الحبّ: حب الله، وحبّ الإنسان لأخيه الإنسان (حبّ لأخيك ما تحبّ لنفسك)[2]، وبني على دفع العدوان بالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[3]. ونهى عن العدوان، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[4]. ودعا إلى العفو والتسامح، قال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[5]. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[6].

ولا يمكن لبني الإنسان أن يتعايشوا إلّا بالمحبة، وبالحب وحده يحيا الإنسان، ولا يمكن لبني الأديان أن يتعايشوا ويحققوا مصالحهم ويصلوا إلى أهداف أديانهم إلّا بالمحبّة، وبالمحبّة وحدها. وإنا لنعجب من بعض أتباع الأديان الذين يريدون لأديانهم الانتشار والغلبة بأساليب العدوان وزرع البغضاء، وتأجيج الصراع،

---

(1) الكتاب المقدس (العهد الجديد): 102، الكنيسة.
(2) الشنقيطي: أضواء البيان/ 9، 97، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان.
(3) سورة فصلت: الآية 34.
(4) سورة البقرة: الآية 190.
(5) سورة البقرة: الآية 237.
(6) سورة آل عمران: الآية 134.

واستخدام العنف وسيلة لذلك. وهذا الخطأ بعينه، فإنهم بذلك أخطأوا الطريق، وانكفأوا عن تحقيق غاية الدين، وقتلوا الإنسان الذي هو هدف الدين، وأضاعوا مرضاة الإله التي هي غاية الدين.

إنّ توريث الصراع بين الأديان ينقلب على أهله والداعين إليه عكسياً، فيفرّطوا بمبدئيتهم، وإنسانيتهم، كما هو حاصل الآن بين بعض الأقوام في أفريقيا ـ مثلاً ـ فإن بعض المؤسسات الدينية التي تقف وراءها وتحرّكها أهدافاً سياسية تشعل نار الفتنة بين اتباع الأديان المختلفة لخلق حاجز نفسي بين أتباع الأديان، وما دروا أن ذلك غير مجد، ولا نافع في تحقيق أهدافهم، وإنما انقلب على الدين عموماً سوء فهم، وبطلان عمل.

إن اتباع الأديان يجب أن يوحّدوا صفوفهم، ويجعلوا المحبة بينهم وسيلة لكسب اتباع آخرين لصفّ المتدينين، وتعزيز مواقعهم في مواجهة الكفر والضلال والانحراف والتحلل الأخلاقي، والابتعاد عن إنسانية الإنسان كما أرادها الله خالق الأكوان.

3. التكافل

والتكافل واحدة مما يشترك فيها الأديان السماوية، وغير السماوية، وهي خصيصة يتميز بها الإنسان عن سائر المخلوقات، تنبع من شعور إنساني كريم عميق، وتعبِّر عن نفسها بصور متعددة، تتجه إلى إرضاء الشعور الإنساني، وتعميق العلاقة بين الإنسان والإنسان، والإسلام قرّر هذا الأمر وأقره بكتابه المجيد، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿...وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ

(1) سورة آل عمران: الآية 104.

وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[1]. وبحديث خاتم الأنبياء محمد ﷺ: (من لم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم)[2]، و (من أصبح لم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم)[3]، (المؤمن للمؤمن بمنزلة البنيان يشدّ بعضه بعضاً)[4]، إلى غير ذلك من بيانات قرآنية، ونبوية تعلق اخوة الإنسان بالإنسان، وواجبه تجاه أخيه المسلم وغير المسلم: (ـ الناس ـ فإنهم صنفان إما أخ لك بالدين، وإما نظير لك في الخلق)[5]، وقوله ﷺ: (أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة)[6] وقرن بين سبابته ﷺ والوسطى.

والتكافل في الإسلام درجات: منها التكافل الأسري، ومنها التكافل المجتمعي، ومنها تكافل الدولة للأفراد، والتكافل قد يكون نظاماً اجتماعياً عاماً، وقد يكون عملاً إنسانياً تبادر إليه منظمات إنسانية، أو جمعيات خيرية، وقد يكون عملاً فردياً، يقوم به فرد بحافز إيماني. والهدف في كل ذلك هو إشباع حاجة هذا الفرد أو ذاك، وسدّ ضروريات حياته.

والمجتمعات الغربية المسيحية تقوم بمهمة التكافل الاجتماعي بمستوياته المتعددة: الدولة، والمنظمات الإنسانية الاجتماعية،

---

(1) سورة المائدة: الآية 2.

(2) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ 16، 336، ح1، باب: وجوب الاهتمام بأمور المسلمين.

(3) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ 16، 336، ح3، باب: وجوب الاهتمام بأمور المسلمين.

(4) العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ 58، 150، في قول رسول الله ﷺ: مثل المؤمن في...

(5) نهج البلاغة: 3، 84.

(6) العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ 35، ..117.

والأفراد. وقيامها بهذه المهمة هو تعبير عن الروح الإنسانية الخيّرة التي زرعتها المسيحية وأشاعتها. بل إن هذه الروح تجاوزت المجتمعات المسيحية، إلى مجتمعات غير مسيحية: إسلامية، أو وثنية بدائية. وهذا يدلل على عمق الشعور الإنساني بالإنسان الذي أفاضته الديانة المسيحية في ضمائر، وعقول معتنقيها.

إن التكافل بين البشر بمختلف عقائدهم وأديانهم يشكل أرضية صالحة للتعايش المشترك، وهو التزام أخلاقي بقيم السماء، وبالفضائل العظيمة التي شرّعتها وأقرّتها الأديان السابقة واللاحقة، وهي شرع لنا ولغيرنا، لأنها تنبع من شريعة السماء الواحدة، ولأنها تعبر عن شعور إنساني أصيل، يشترك به كل البشر ما داموا يحافظون على سلامة فطرتهم، وصدق نواياهم، وعمق فهمهم للدين ومراميه.

4. التواضع

وهذه صفة خلقية كريمة، وفضيلة إنسانية سامية تأمر بها جميع الشرائع السماوية، وكل الفلسفات الإنسانية. وهي تعبير عن سلوك إنساني مستقيم سليم يعي أصله، ويعي دوره، ويعي سبب وجوده. فالإنسان حين يعي أصله وأنه وسواه من بني البشر من أصل واحد ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1]، وقوله ﷺ: (إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب)[2]، لابد أن يدرك حدوده، ويتعرّف على طاقاته، كما أنه حين يعي دوره على

(1) سورة الحجرات: الآية 13.

(2) ابن شعبة الحراني: تحف العقول/ 34.

هذه الأرض ويستوعب حقائق الوجود من حوله، فإنه لا محالة سوف يتطامن، ويتواضع، ويتناغم مع من حوله من بني الإنسان لكي يقوم بالمهمة التي استخلف عليها، فإنه غير قادر على ذلك وحده. وحين يعي الإنسان علّة وجوده وطبيعة المهمة المكلّف بها، ومسؤوليته الأخروية وقبلها الدنيوية، فلابد له من أن يسلك سلوكاً سليماً وصولاً إلى مبتغاه، وغاية خلقه قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]. ووعي العبادة هو الخضوع لله والامتثال لأوامره قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾[2]. وقرن الإنسان بالأرض الجامدة، والجبال الهامدة تذكير بعجزه وقصوره، وقلّة حيلته.

والتواضع ـ هذه الفضيلة الكريمة ـ لا تعني الاتضاع، ولا تعني الدونية وإنما تعني قوة النفس الإنسانية، وعمقها، وشعورها بإنسانيتها وإدراكها لواجباتها تجاه الآخرين، فمن دون التواضع، لا يكون تواصل، وحين لا يكون تواصل، لا يكون عمل. ومعنى ذلك لا يكون إعمار لهذه الأرض، فيختلّ شرط الاستخلاف.

ونقيض التواضع، التكبّر، ويعني التعالي على الآخرين، واحتقارهم وإذلالهم. وذلك يقود إلى زرع البغضاء والأحقاد في نفس الإنسان مما يؤدي إلى قيام صراع دموي يهلك الزرع والضرع. ويمكن للتواضع أن يكون أداة فهم وتفاهم وتعاون وتفاعل بين الإنسان وأخيه الإنسان، وهو ما تعمل له كل الأديان.

التواضع خصيصة إنسانية حثت عليها كل الأديان السماوية، والفلسفات الأرضية لأنه خليقة إنسانية فاعلة بنّاءة، والدين يعمل

(1) سورة الذاريات: الآية 56.

(2) سورة الإسراء: الآية 37.

على ايجادها في النفس الإنسانية من خلال التذكير بها والحث عليها، وترويض النفس الإنسانية، لكي تعبّر عن أصالتها، وعمقها، وإيجابياتها، وإتساقها مع ما يريده الدين من الإنسان.

وبهذا الفهم الغريزي للإنسان، والفهم الأخلاقي للأديان تكون فضيلة (التواضع) سبباً لوحدة الإنسان، والأديان، وعنصراً مستداماً لحركة المجتمع والتاريخ، وقابلاً للنمو والتطور والاتساع في حياة المجتمعات البشرية التي آمنت بالدين سبيلاً للسلوك السليم، والتفكير المستقيم وصولاً إلى سعادة الدارين.

5. التضامن من أجل الحقيقة

الدين حقيقة مطلقة، لأنه صادر عن الحق المطلق (الله) والقوانين الطبيعية الثابتة حقيقة مطلقة لأنها لا تتغير، ولا تتبدّل، والسنن الكونية حقائق مطلقة، لأنها تسير وفق نظام محدّد، لا يتحوّر، ولا يتحوّل.

والإنسان منذ أن كان يدأب ـ وما زال ـ باحثاً عن الحقيقة سالكاً سبلاً شتى، مستخدماً مناهج مختلفة.

والإنسان المتدين بيده الحقيقة، وهي ملء سمعه وبصره، وتسكن عقله، وتعمر قلبه. الحقيقة المطلقة هي وجود الله، ووحدانيته، وأحقيته بالعبادة. ومن كانت هذه حاله، عليه أن يعيش الحقيقة في حياته، داعياً إليها، منافحاً عنها، مسخّراً طاقاته لتبليغها. وما دامت الحقيقة ملازمة للأديان، فهي ملازمة للإنسان، والحقيقة في كل عصر هي هي، والإنسان في كل عصر هو هو. وعلى هذا فإن أتباع الأديان المتعاقبة يجب أن يعوا حالة واحدة، أنهم مجتمعون حول الحقيقة لا تفرّقهم الأضاليل والأباطيل، ولا

تحرفهم عن قصدهم شتى الأقاويل. فالحقيقة عندهم والسراب عند غيرهم قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾[1].

ولكنا اليوم نرى أن أتباع الأديان ودعاتها مختلفون، متناحرون، وقد نسوا أن الحقيقة توحّدهم قولاً وفعلاً.. هذه الحقيقة التي نطقت بها كل الأديان السابقة واللاحقة وجاء بها كل الأنبياء والرسل. واختلافهم هذا هو حول إيصال الحقيقة وتبليغها. فالحقيقة واحدة وسبل إيصالها متعددة، وهذا لا يستدعي صراعاً، أو تناحراً لأن ذلك ينسيهم الحقيقة، ويشغلهم عنها، ولا يبقى بين أيديهم منها إلّا ظلالها، وخيالها. وهذا ما يوقعهم في شرك الدنيا وينسيهم الآخرة. فالحقيقة والإيمان بها، وتبليغها، والمنافحة عنها يجب أن يكون همهم الأول والأخير، أما سبل ايصالها وتبليغها، فيجب أن تكون جزءاً من الغاية، لا قفزاً عليها. وبذلك تكون الحقيقة والإيمان بها، وتبليغها أداة توحيد، وسبيل تضامن، ومصدر قوّة لطالبيها، والمؤمنين بها. وهي كفيلة بتوحيد صفوفهم، وإعلاء كلمتهم، وشحذ سلاحهم. فالدين هو الحقيقة، وطلب الحقيقة غاية الإنسان في كل زمان ومكان، فلتقدّم له الدين الذي هو الحقيقة بأساليب مقنعة ترضي العقل والضمير وقبل ذلك وبعده توصل إلى رضوان الله تعالىٰ وهو مبتغانا في الدنيا والآخرة.

---

(1) سورة يونس: الاية 32.

المحور الرابع

شرع من قبلنا

توطئة:

(شرع من قبلنا) بحث ذكره علماء الأصول في مصنفاتهم قديماً وحديثاً، والغرض من تسليطنا الضوء عليه تحويل هذا الموضوع إلى نظرية عامة تبرهن على أن.. دين الله واحد؛ لأنه صدر من مشرّع واحد، ولأن هدفه واحد، وآلياته في التعامل مع الإنسان وما حوله واحدة، فإذا درسنا الخطوط العريضة لدين الله تعالى من آدم عليه السلام ـ أول الأنبياء ـ إلى النبي محمد ـ خاتم الأنبياء ـ (صلّى الله عليهم أجمعين)، لرأيناها متطابقة، متساوقة في الهدف والمضمون. وإن وجدنا اختلافاً بينها، فهو اختلاف في التفصيل، هذا الاختلاف جاء ملبّياً لضرورة أو استجابة لحاجة، أو مراعاة لظروف، أو إشباعاً لرغبة يتطلّبها الحال، كلُّ ذلك لا يتقاطع مع الخطوط العامة الجامعة لكل الأديان السماوية، بل هو متساوق معها، وهو مما يجعلها تشريعاً واقعياً، ينسجم مع واقع الإنسان نفسياً وفكرياً، ويتلاءم مع عصره بكل متطلباته اليومية.

والدعوة إلى الإيمان بالله تعالى وإلى توحيده ثابتة في كل الأديان المنزلة من الله تعالى، وآليات العبادة ـ التي هي أداة وصل وتواصل بين الإنسان وربه ـ قائمة وإن اختلفت طريقة الأداء،

والارتباط الحميم بين الإنسان خليفة الله تعالى وبين الكون بكل قوانينه ونظمه وسننه يساعد على التكامل والتفاعل لتحقيق مفهوم الوجود والتوحيد والتعبّد، بالتفكير والتدبّر والعمل الصالح.

كل هذا يشير إلى وجود منظومة فكرية دقيقة وحيّة وفاعلة تربط بين الأديان السماوية جميعاً، وتدعو إلى قيام نظرية عامة واحدة، تفسّر ظواهر الكون والوجود، وترسم الطريق للإنسان ـ الإنسان في كل زمان ومكان ـ لكي يتعمّق إحساسه بأنه المخلوق الأهم في الكون، وأنه تجلي الوجود الأظهر، وهدف الدين الذي أقرَّ بخلافته عن الله تعالى في هذه الأرض.

إن المشاعر الإنسانية العميقة التي تربط الإنسان بخالقه سبحانه وتربط الإنسان ببني جلدته، وتبلور العلاقة الحميمة الصميمة بين الإنسان وما حوله من ظواهر كونية تؤسس لنظرية عامة مشتركة بين الأديان جميعاً، فكيف إذا أضيف إليها وحدة الفكر، ووحدة الهدف، ووحدة الطريق؟! إنّ ذلك سيقود حتماً إلى القول بوحدة جوهر الدين.

ويرى أستاذنا آية الله الشيخ مصطفى الهرندي (دام ظله): أن بين الشرائع ـ جميعاً ـ قاسم مشترك، يتمثّل بالأصول الخمسة. غاية الأمر أن لكل زمان أصولاً خاصة، تتطلبها الظروف، والأحوال التي بُعِث فيها هذا النبي أو ذاك.

تحويل شرع من قبلنا إلى نظرية عامة..

لقد أولت الشريعة الإسلامية اهتمامها بالشرائع السماوية الأخرى وبقيّة الأديان، بل أن بعض الآيات الكريمة والتي وردت في الكتاب الكريم صريحة في أنها شرط في عدم استكمال الإيمان

إلّا بعد الإيمان بالشرائع الأخرى. قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[1]. ومعلومٌ أن هذا لا ينافي مقولة نسخ الشرائع السابقة بواسطة الشريعة اللاحقة؛ لأن تعليمات الأنبياء وشرائعهم من قبيل المراحل الدراسية المختلفة من ابتدائية ومتوسطة وإعدادية وجامعية. فعلى الرّغم من أنها تشترك ـ جميعاً ـ في الأصول، والمبادئ الأساسية، إلّا أنها تختلف في العمق والتطبيقات المختلفة. فعندما يرتقي الإنسان إلى مرحلة أسمى، فإنه يترك البرامج المعدّة للمرحلة السابقة ويأخذ بالبرامج المعدّة لهذه المرحلة ـ اللاحقة ـ ومع ذلك يبقى احترامه وتقديسه للمرحلة السابقة في محله.

وبما أن النظام التقنيني التشريعي يخضع للحاجات البشرية ويأتي استجابة لحاجات الناس، فعندما تتغيّر الحاجات لابد من أن يتغير القانون، ولذا قسّمنا الأحكام إلى: أحكام مؤقتة وأحكام غير مؤقتة. ومن هذا التقسيم جاء النسخ؛ لأن الله تبارك وتعالى ينسخ الحكم الذي انتهى أمده، واستنفذ غرضه في المجتمع الإنساني، وقد أدى دوره فينتقل إلى دور آخر قال تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾[2]، (فجميع الشرائع التي أنزلها الله على أنبيائه دين واحد يجب إقامته وعدم التفرق فيه. فأما الاحكام السماوية المشترك فيها الباقية ببقاء التكليف فمعنى الإقامة فيها ظاهر. وأما الاحكام المشرعة في بعض هذه الشرائع المنسوخة في الشريعة اللاحقة فحقيقة الحكم المنسوخ أنه حكم ذو أمد خاص

(1) سورة البقرة : الآية 285.

(2) سورة المائدة: الآية 48.

بطائفة من الناس في زمن خاص ومعنى نسخه تبين انتهاء أمده لا ظهور بطلانه، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾[1]، فالحكم المنسوخ حق دائماً غير أنه خاص بطائفة خاصة في زمن خاص يجب عليهم أن يؤمنوا به ويعملوا به ويجب على غيرهم أن يؤمنوا به فحسب من غير عمل وهذا معنى إقامته وعدم التفرق فيه)[2].

إذن الدين يتنوع بتنوّع المحطات التاريخية التي مرت الأديان السماوية فيها، لكن اختلاف المحطات لا يستوجب اختلاف الهدف والغاية. فالثابت في لوح الواقع شيء واحد، وحكم واحد، وشريعة الله سبحانه واحدة من آدم عليه السلام إلى نبيّنا محمد (صلّى الله عليه وآله). نعم يمكن القول: بأن التغيير إذا ما تحقق، فإنه يكون في الأحكام المؤقتة فقط.

ومن هنا بحث العلماء قديماً وحديثاً في (شرع من قبلنا) ويراد به هو خصوص الشرائع التي أنزلها الله ـ عزّ وجل ـ على أنبيائه عليهم السلام، وثبت شمولها في وقتها لجميع البشرية.

وقبل استعراض الأقوال المذكورة في المقام والبحث في أدلتها لابد من الإلتفات إلى النقاط الآتية:

أولاً: مما لا شكّ فيه ولا ريب أن الشريعة الإسلامية قد نسخت جميع الشرائع السابقة على وجه الإجمال، وهذا ما نستفيده من قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ

---

(1) سورة الأحزاب: الآية 4.

(2) السيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن/ 19، 30.

﴿وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

ثانياً: ومن الواضح المعلوم أن الشريعة الإسلامية لم تنسخ جميع ما جاء في تلك الشرائع السابقة على وجه التفصيل، فإن كثيراً من الأحكام والمعتقدات هي مشتركات بين الشرائع المقدسة ـ وعلى سبيل المثال ـ لم ينسخ وجوب الإيمان بالله تعالى، وتحريم الزنا، و السرقة، والقتل، فكل الشرائع كانت متفقة عليها.

ثالثاً: حصول العلم الإجمالي بوقوع التغيير في كتبهم. فما نقل إلينا من (شرع من قبلنا) على ألسنة أتباعها ليس بحجة علينا بالإتفاق؛ لأن مثل هذا النقل لا يمكن الاعتماد عليه، بل يمكننا الاعتماد فقط على ما نقل إلينا من طريق الكتاب الكريم أو السنة الشريفة.

ثم ما نقل إلينا.. تارة: نقل إلينا، وورد الدليل على نسخه، فهذا ليس بشرعٍ لنا قطعاً فلا يجوز العمل به.

وأخرى: نقل إلينا، وورد الدليل على مشروعيته، فهذا مكلفون بالعمل به ولكن بمقتضى الدليل على مشروعيته.

وثالثة: ما ورد في كتاب الله عزّ وجل، أو السنة الشريفة من الأحكام التي وردت في الشرائع السابقة من غير إنكار، ولم يكن هناك ما يدل على نسخه أو مشروعيته. وهذا القسم هو الذي اختلف الأعلام فيه. فهل أن مثل هذه الأحكام شرع لنا أيضاً ومكلفون بالعمل بها، أو أنها نقلت إلينا على سبيل الإخبار المحض من دون تكليف بها؟

(1) سورة آل عمران: الآية 86.

الأقوال في المسألة

ومن مراجعة كلمات الأعلام ومن تصدى للحديث ـ رحم الله الماضين منهم وحفظ الباقين ـ في هذا الموضوع يتبين أن في المسألة ثلاثة أقوال:

الأول: يذهب إلى أنها شرع لنا مطلقاً إلا ما ثبت نسخه في شريعتنا.

الثاني: يرى أنها ليست بشرع لنا مطلقاً، وأن النسخ مسلّط عليها جملةً وتفصيلاً، بحيث لو كان حكم في الشريعة اللاحقة موافقاً لما في الشريعة السابقة، لكان الحكم المجعول في الشريعة اللاحقة مماثلاً للحكم المجعول في الشريعة السابقة، لا بقاءً له، فيكون مثل إباحة شرب الماء الذي هو ثابت في جميع الشرائع، مجعولاً في كل شريعة مستقلاً، غاية الأمر أنها أحكام متماثلة.

الثالث: أن ما قصّه علينا الله تعالى ورسوله ﷺ من أحكام الشرائع السابقة، والتي لم يرد في شرعنا ما يدل على أنه مكتوب علينا، كما كتب عليهم أو أنه مرفوع أو منسوخ فهو شرع لنا ومكلفون به.

ويقع البحث في أدلة كل قول:

أما القول الأول: فيذهب أصحابه إلى أنها شرع لنا مطلقاً إلا ما ثبت نسخه في شريعتنا منها، وقد استدلوا عليه بأدلة هي:

1. آيات من كتاب الله تعالى فحواها: اعتبار الشرائع السابقة شريعة النبي محمد ﷺ أمثال قوله تعالى :﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ

﴿لِلْعَالَمِينَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[4].

2. استشهاد النبي ﷺ في مقام التشريع بأحكام وردت في شريعة سابقة، كاستشهاده في أثناء قوله (صلى الله عليه وآله): (من نام عن صلاة، أو نسيها، فليقضها إذا ذكرها، إن الله تعالى يقول: وأقم الصلاة لذكري)[5]. وهو خطاب قرآني لموسى عليه السلام، إلى غير هذا من الأحاديث.

ويمكن المناقشة في هذين الدليلين بما أفاده السيد الحكيم (رحمه الله)[6]:

من أن هذه الأدلة لو تمت دلالتها، فهي لا تدل على أكثر من

---

(1) سورة الأنعام: الآية 90.
(2) سورة النحل: الآية 123.
(3) سورة الشورى: الآية 130.
(4) سورة المائدة: الآية 44.
(5) السيد البروجوردي: جامع أحاديث الشيعة/ 6، 1.
(6) يلاحظ لذلك مفصلاً: السيد محمد تقي الحكيم: الأصول العامة للفقه المقارن/ 420، بتصرف.

أصل تلكم الشرائع، فغاية ما تفيده هو ثبوت أصل تلكم الشرائع لا أنها شرائع لنا أيضاً.

3. الاستصحاب ولعلَّه أهم الأدلة، وقد ذكره كثير من الأصوليين في مسألة الشك في ارتفاع حكم ثبت في الشريعة السابقة بادِّعاء العلم بثبوته، والشك في ارتفاعه بالنسخ بالنسبة إلينا، فيحكم ببقائه؛ لما دلَّ على حجية الاستصحاب من باب الظن أو أخذاً بالأخبار الشريفة الدالة عليه مثل قوله ﷺ: (فليس ينبغي لك أن تنقض اليقين بالشك أبداً)[1].

وتقريب الاستدلال به ـ كما عن المحقق العراقي (رحمه الله) ـ:

أن جعل الأحكام لما كان بنحو القضايا الطبيعية المتكفلة للحكم على طبيعة المكلفين بنحو السريان في الأفراد الفعلية المحققة الوجود والفرضية المقدرة وجودها لا بنحو القضايا الخارجية المتكفلة للحكم على الأفراد المحققة الوجود في زمان خاص، فلا يلزم إشكال من جريان الاستصحاب مع الشك في استمرار الحكم وبقائه؛ إذ بعد أن كان مقتضى العموم ثبوت الحكم من الأول لجميع الأفراد الفعلية والفرضية لولا النسخ فلا جرم عند الشك في النسخ وعدم عموم لفظي يقتضي استمراره في جميع الأزمنة، فيجري فيه استصحاب البقاء وعدم النسخ، ولازمه ثبوته للأفراد الموجودة في الشريعة اللاحقة؛ لأن منشأ الشك في ثبوته فعلا للأفراد الموجودة في الأزمنة المتأخرة إنما يكون هو النسخ لا غيره، فاستصحاب عدمه يكفي لنفي هذه الجهة من الشك[2].

---

(1) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ 3، 466، ح1. باب: أن كل شيء طاهر حتيبعلم ورود النجاسة. . . .

(2) الشيخ محمد تقي البروجوردي: نهاية الأفكار/ تقريرات المحقق آية =

وناقش السيد الخوئي (رحمه الله) في هذا الدليل:

بأن النسخ في الأحكام الشرعية إنما هو بمعنى الدفع وبيان أمد الحكم؛ لأن النسخ بمعنى رفع الحكم الثابت مستلزم للبداء المستحيل في حقه تعالى، وقد ذكرنا في غير مرة أن الإهمال بحسب الواقع ومقام الثبوت غير معقول، فإما أن يجعل المولى حكمه بلا تقييد بزمان ويعتبره إلى الأبد، وإما أن يجعله ممتداً إلى وقت معين. وعليه فالشك في النسخ شك في سعة المجعول وضيقه من جهة احتمال اختصاصه بالموجودين في زمان الحضور. وكذا الكلام في أحكام الشرائع السابقة، فإن الشك في نسخها شك في ثبوت التكليف بالنسبة إلى المعدومين، لا شك في بقائه بعد العلم بثبوته، فإن احتمال البداء مستحيل في حقه تعالى، فلا مجال حينئذٍ لجريان الاستصحاب[1].

ويمكن الجواب عن هذه المناقشة:

بأنها كما ترد على استصحاب الشرائع السابقة كذلك يمكن أن يورد بها على أصل استصحاب الأحكام في شريعتنا الإسلامية أيضاً إذ الشك يكون في سعة المجعول وضيقه.

مع أنه لو أحرز سعة المجعول لشمل المعدومين فلا مورد للاستصحاب لعدم الشك حينئذٍ في شموله لهم.

ودعوى أن الشك في نسخ أحكام الشرائع السابقة شك في

= الله العظمى الشيخ أغا ضياء الدين العراقي، 4، 174 ـ 175، مؤسسة النشر الإسلامي، قم المقدسة ـ إيران..

(1) السيد محمد سرور البهسودي: مصباح الأصول/ تقريرات بحث آية الله العظمى السيد أبو القاسم الخوئي، 3، 148، منشورات مكتبة الداوري، قم ـ إيران.

ثبوت التكليف بالنسبة إلى المعدومين، لا شك في بقائه بعد العلم بثبوته غير واضح بعد أن كانت الأحكام مجعولة بنحو القضايا الطبيعية لا الخارجية.

وأما لزوم البداء المستحيل من رفع الحكم الثابت فغير واضح؛ إذ هو إنما يلزم إذا لم يكن يعلم به، وقد يكون إظهار الحكم بنحو الاستمرار لمصلحةٍ، وعلمه تعالى بالرفع قبل الجعل لا يقلب الرفع عن واقعه الذي هو عليه، والرفع من حينه لا ينافي علمه بالرفع قبله و (ما بدا لله في شيء إلا كان في علمه قبل أن يبدو له)[1].

إذن لو علمنا بحكم من الشرائع السابقة ولم نعلم بنسخه فهو شرع لنا.

وأما القول الثاني: وهو أنها ليست بشرع لنا مطلقاً، وأن النسخ مسلَّط عليها جملة وتفصيلاً. وأهم ما استدل به هؤلاء من نفاة الشرائع السابقة:

1. حديث معاذ: أنه ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن، قال له: بمَ تحكم؟ قال (بالكتاب والسنة والاجتهاد). ولم يذكر التوراة والإنجيل، وشرع من قبلنا. فزكّاه رسول الله ﷺ وصوَّبه. ولو كان شرع من قبلنا من مدارك الأحكام لما جاز العدول إلى الاجتهاد إلا بعد العجز عنه.

ويمكن المناقشة في ذلك:

بأن تصويب النبي ﷺ له لا ينفي الاعتماد على شرائع السابقين الذي هو محل الدعوى إذ إن العمل بها يتوقف على العلم

---

(1) الشيخ الكليني: الكافي/ 148، باب: البداء.

بها فلعلّ معاذ لم يكن مطّلعاً على تلك الأحكام من الشرائع السابقة.

مع أن هذه الرواية يمكن التشكيك فيها من حيث السند، ولذا أفاد السيد الحكيم (رحمه الله) أن الاستدلال بهذه الرواية متين جداً، لو لم تكن الرواية من الموضوعات.

2. أن أحكام شرع من قبلنا لو كانت أحكاما وشرعاً لنا أيضاً لكان تعلمها ونقلها وحفظها من فروض الكفاية كالقرآن والأخبار، ولرجع العلماء إليها في مواضع اختلافهم حيث أشكلت عليهم كمسألة العول، وميراث الجد، وبيع أم الولد.

ويقول السيد الحكيم (رحمه الله)[1]: إن هذا الاستدلال من أمتن الأدلة التي يمكن أن تساق في هذا المجال للقطع بمضمونه، بل ربما حول المسألة إلى كونها من الضروريات، إلا أنه لا ينفي إقرار أصل الشرائع السابقة، كما لا ينفي صحة ما ذهب إليه جمهور الحنفية، وغاية ما ينفيه عدم الرجوع إلى الكتب المتداولة للشرائع وهي مما يعلم بدخول التحريف عليها،فلا تكون حجة.

وأما القول الثالث: وهو أنّ خصوص ما قصه علينا الله ورسوله من أحكام الشرائع السابقة، ولم يرد في شرعنا ما يدل على أنه مكتوب علينا كما كتب عليهم، فهو شرع لنا إذا لم نعلم بأنه مرفوع أو منسوخ كقوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ

---

(1) يلاحظ لذلك مفصلاً: السيد محمد تقي الحكيم: الأصول العامة للفقه المقارن/ 427 ـ 435، بتصرف.

لَمُسْرِفُونَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[2]، فهو شرع لنا وعلينا اتّباعه وتطبيقه.

ولم يذكر أرباب هذا القول دليلاً واضحاً عليه، وقد يبدو منسجماً مع مبدأ التوقف عن التعامل مع الشرائع السابقة، وهو في الحين التي ينظر إلى الشرائع السابقة بمنظار القبول يجعل ثبوتها حكراً على طريقٍ خاصٍ، ولكن هذا التفصيل غير واضح؛ إذ لا موضوعية للطريق، وليس في الشرع ما يمنع من العمل على وفق الطرق العقلائية لإثبات المقاصد، فإذا ثبت أن الحكم ثابت في الشريعة السابقة من أي طريق كان ولم يعلم بنسخه في شريعتنا فهو شرع لنا سواء كان الثبوت بإخبار الله تعالى في القرآن الكريم أو إخبار النبي ﷺ في سنته الشريفة أو إخبار الأنبياء عليهم السلام الذين قبله إذا وصل إلينا بطريق صحيح.

نعم قد لا يكون لنا سبيل للاطلاع على أحكام الشرائع السابقة غالباً إلا من طريق شريعتنا الغرَّاء، وثبوت التحريف في كتبهم المتداولة يمنع من الركون إليها والاعتماد عليها والوثوق بجميع مضامينها، وهذا موضوع آخر.

والخلاصة: أن الأدلة اللفظية لو تمت حجتها على إقرار الشرائع السابقة فهي إنما تدل على أصلها، لا على كتبها المتداولة، والعلم الإجمالي بطروء التحريف على الأصول التي تحكي أحكام

---

(1) سورة المائدة: الآية 32.

(2) سورة المائدة: الآية 45.

تلك الشرائع يمنع من التمسك بظواهر جميع أطرافها؛ لاحتمال طروء النقص أو الزيادة على كل منها، نعم لو ثبت بطريقٍ ما حكمٌ من الأحكام الثابتة في الشرائع السابقة ولم يعلم بنسخه فلا ضير في الالتزام به وكونه ثابتاً في حقنا أيضاً[1].

---

(1) يلاحظ لذلك مفصلاً: السيد محمد تقي الحكيم: الأصول العامة للفقه المقارن/ 427 ـ 435، بتصرف.

المحور الخامس

التوسع الأفقي والعمودي لنظرية:

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾

على كل الأديان وبسقوط الإكراه تسقط كل آثاره على مستوى الإرهاب

توطئة:

الإيمان فعل قلبي لا يخضع لإكراه، ولا يستجيب لقهر. ذلك أنه مبني على قناعات عقلية قائمة على الاختيار الحرّ، والدين - بمختلف مسمّياته ومستوياته - هو لون من القناعات الفكرية التي تؤدّي بمجملها إلى الإيمان به، والتعبد بأصوله وفروعه. كما أن الدين - بتعدد مسمياته ومستوياته - منزل من ربّ العالمين هداية ورحمة للناس بأحكامه وتشريعاته، ومقاصده، وغاياته، فهو ينظم العلاقة بين الإنسان وأخيه، وهو يبني نظاماً اجتماعياً حكيماً وسليماً ابتداءً من علاقة الإنسان بنفسه إلى علاقته بأفراد مجتمعه مروراً بالنظام الأسري الرحيم والكريم الذي يضع الإنسان في مواجهة مسؤولياته، والقيام بها مندفعاً ذاتياً وبحوافز اختيارية مطلقة، وحتى نظام العبادات الذي يحدّد العلاقة بين المرء وربّه هو مكرّس أساساً لتوجيه السلوك الإنساني نحو تحمّل المسؤولية تجاه بني الإنسان الآخرين، فالصلاة - مثلاً - تنهى عن الفحشاء

والمنكر، والصوم هو صوم الجوارح عن الحرام، والحج تعميق الشعور بوحدة بني الإنسان في المبدأ والمعاد، والزكاة إشعار لبني الإنسان بواجبه التكافلي تجاه بني جنسه، فدور هذه العبادات الخالصة هو دور التوجيه، والتهذيب، والتربية النفسية، والإعداد الخلقي والاجتماعي ليقوم الإنسان بمسؤولياته الاجتماعية انطلاقاً من أداء فروضه التعبديّة.

فالدين ليس مجرّد مشاعر نفسية، أو قناعات عقلية، بل هو عمل ضمن منظومة اجتماعية متكاملة تحقق ـ في مجملها ـ رضا الله من خلال القيام بأعمال موجّهة أساساً لنفع الناس، وخدمة البشرية جمعاء.

والدين ـ بمعناه العام ـ منذ أن أنزل إلى ما جاء به الإسلام ـ خاتمة الرسالات السماوية ـ يكاد يتّفق على حقيقتين: أولاهما: عبادة الله وتوحيده، وثانيهما: نفع الإنسان ووضعه في الطريق المستقيم الذي يكفل له سعادة الدارين. ولكنّ فهم المتعبدين بالدين هو الذي أدى إلى اختلاف ممارستهم له، واختلاف مواقفهم منه، ومن الآخرين. وهذا الفهم المنحرف للدين جاء نتيجة عدّة عوامل ذاتية وموضوعية منها: النزعات الإنسانية الضيّقة، لتحقيق مصالح فردية، أو فئوية، أو سلطوية، ومنها: طبيعة الظروف الخارجية التي تفرض لوناً من التفسير، والفهم. والتطبيق. لكنّ في الواقع أن الأديان السماوية حافظت على شيء من التأصيل الفكري الذي وحّد بين منطلقاتها وأساليبها، وأهدافها مما جعلها قريبة من بعضها في مواجهة عالم المادة وفلسفاته التي جرفت الإنسان إلى هاوية الالحاد والتحلل الخلقي. ولعل جامع الفضائل الخلقية الذي يجمع الأديان اليوم هو الذي يجعلها تقف موقفاً موحّداً وحازماً تجاه كل دعوات الالحاد والانحراف الخلقي، ما يجعلها مصدر اشعاع

وإلهام لكل بني الإنسان الذين يطمحون إلى تحقيق مثل عليا، وإنسانية كريمة في حياتهم، متسامية على حاجات الأرض، وراغبة إلى قيم السماء لإقامة توازن حميم بينهم.

إن الأديان السماوية التي قدّر لها أن تشهد امتداداً تاريخياً لم تحقق ذلك بالعنف، والقوّة. والقهر والتسلط، وإنما حقّقت ذلك بالسماحة والمروءة، وقوّة المثل، وعمق الاحساس وصلابة الموقف المستند إلى قناعات وجدانية وعقلية أتاحت لها الانتشار والامتداد، والتعمّق في حياة البشرية، فكان الاقناع والحجة ومخاطبة الفكرة والضمير والعقل هو الوسيلة المجدية والصائبة في احتواء الناس وادخالهم في دين الله أفواجاً. والحروب الصليبية مثلٌ معاكس لذلك، فقد جاءت القوى الغربية بجيوش جرّارة بدعوى تحرير بيت المقدس والأماكن المقدّسة المسيحية الأخرى، ولم تستطع هذه الجيوش على مدى قرنين من الزمان أن تحقق أهدافها المعلنة، وإنما انجرّت إلى ممارسات عنيفة هي بالضدّ من رسالة السيد المسيح ﷺ وقد أظهرت هذه الحروب الفهم الخاطئ للمسيحية، والأهداف العدوانية التوسعية لحكام أوربا، وانجرار رجال الدين الكنسيين إلى أوهام ومطامع لا واقع لها.

وكذلك ظاهرة الاستعمار الغربي الحديث الذي جاء ببرقع التبشير لكي يحقق أهدافه العدوانية التوسعية، فتحالف مع التبشير المسيحي فكانا أداة ظلم، وانتهاك لإنسانية الإنسان، وقمع ومصادرة لإرادة الناس، وحريتهم في اختيار عقيدتهم. ولم تكن وسيلة الاستعمار وحلفائه من التبشيريين هي الاقناع، ومخاطبة العقل، وإقامة الحجّة، وتقديم الدليل بقدر ما كانت وسائلهم مجرّدة من كل إنسانية، أو مثالية دينية، أو تحرير من أوهام الوثنية وأساطير البدائية.

وما نقوله عن هؤلاء نقوله عن بعض المتشددين المسلمين المتمذهبين بمذاهب تشرعن القتل، وتدمير الإنسان وإلغائه، ومصادرة عقله بدعوى (التوحيد). وهم لا يفهمون مضمون التوحيد الحقيقي الذي هو رحمة وهدىً وتوحيد للناس نحو هدف أسمى وهو عبادة الله سبحانه. إنّ فهم الدين بهذا الشكل المنحرف إساءة للدين وتزييف لحقائقه، وانحراف عن أهدافه الإنسانية، فالدين ـ في جوهره ـ جاء هداية للناس ورحمة قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[1]، وقال تعالى ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2]، كما أن عليهم أن يفهموا بأن عقول الناس ليست بمستوى واحد من الوعي والنضج والتفكير، بل هي متفاوتة ـ كما خلقها الله ـ وعلى هذا ففهمهم لفكرة التوحيد ليست بمستوى واحد من العمق والإبانة والوعي، وإنما هي مختلفة باختلاف مدركاتهم العقلية ـ كما في كل الأمور ـ فمحاسبة الناس على اعتقاداتهم واقتناعاتهم ينبغي أن تتم وفق هذا المقياس والأخذ باعتبار المستويات العقلية والثقافية والتخصصية، فالتوحيد عند الفلّاح ـ مثلاً ـ يختلف في مداه وعمقه وصفته عنه عند عالم الدين المتخصص المتبحّر المتعمق، ويختلف في مداه عن فهم الإنسان المثقّف الذي أخذ من كل علم بطرف، ويختلف عن فهم الإنسان العارف الذي غاص في لجّة الفكر والتأمل والعرفان كما يختلف عن فهم رجل الدين المتفقّه الذي يكون علمه في الفقه حرفياً. وهكذا تختلف النظرات، والتفسيرات والتأويلات باختلاف الناس ومواضعهم من العلم والعمل.

فلا يجوز فرض رؤية واحدة على الجميع، وفهم واحد على

---

(1) سورة الأنبياء: الآية 107.

(2) سورة الإسراء: الآية 9.

المستويات المختلفة، وإنما ينبغي مخاطبة الناس على قدر عقولهم، وفهم ما يصدر عنهم من أقوال وأفعال على قدر مدركاتهم.

وعلى هذا فلا يجوز لهؤلاء القوم أن يعيثوا في الأرض فساداً ويستبيحوا حرمات الناس من دماءٍ، وأعراضٍ، وأموالٍ وفق فهمهم القاصر، ومنهجهم الضيّق، وإنما عليهم أن يوسّعوا دائرة الفهم والوعي، وأن يضعوا ذلك في الاطار الإنساني العام للدين وفي سياق مرضاة الله وطاعته التي سبيلها الرحمة بالعباد.

إن فهم الدين فهماً إنسانياً مرناً، وفي اطار مقاصده وغاياته النبيلة، لهو الأمر المطلوب في عالم اليوم مما يوحّد بين الأديان ويسقط الحواجز بينها، ويجعلها حركة واحدة تدعو إلى الإيمان، وإلى إعلاء شأن الإنسان، وبذلك تسقط كل أسباب الاختلاف والاصطراع بينها وتكون قوّة واحدة في مواجهة الظلم والانحراف والقهر والاستلاب، كما أنه يسقط كل مبررات وجود تلك الحركات المتشدّدة التي تسعى لفرض فهمها الخاطئ السقيم، ومفاهيمها المنحرفة على الناس بالقوّة والرعب والارهاب وتدمير قوى الخير، وايقاف عجلة التقدّم البشري. فهي قوّة ظلامية معادية للحياة وحركتها الدائبة في تطوير الإنسان، وتنمية قدراته وفتح آفاق جديدة في حياته تقرّبه - إلى حدّ كبير - من غاية الأديان ومن غاية وجوده على الأرض.

إن اعتماد الإيمان على أساس عقلي، يقوّي من ركائزه وأسسه، كما أن فهم الدين بما يطابق الواقع ويسايره يحيله إلى قوّة واقعية مؤثرة، وينفي عنه كل أوهام العقول، وخرافات الضمائر، ونزعات الشرّ والانحراف، كما أن فهم الدين على أساس تنويري يربط بين الدين والإنسان ويجعل الإنسان هو غاية الأديان، ويجعل الدين محطّة سعادة وراحة للإنسان، يجعل الدين قوّة بنّاءة تحرّر

الإنسان من كل أشكال الأنانية والتسلط، والجهل ومعاداة الخير. وتضيفه إلى القوى المحرّكة لحركة التاريخ وفاعلية الحياة.

التوسع الأفقي والعمودي لنظرية ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾..

الإكراه هو الإجبار والحمل على الفعل من غير رضىً. وفي قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ نفي الدين الإجباري، لأن الدين ـ وهو سلسله من المعارف العلمية التي تتبعها أخرى ـ عملية يجمعها أنها اعتقادات. والاعتقاد والإيمان من الأمور القلبية التي لا يحكم فيها الإكراه والإجبار، فإن الإكراه إنما يؤثر في الأعمال الظاهرية، والأفعال والحركات البدنية المادية.

وهناك أمور لا سبيل إلى بيان وجه الحق فيها كالطواف حول الكعبة سبعة أشواط وما شابه ذلك إما لبساطة المتعبد بالحكم الإلهي في فهمه أو لأسباب أخرى. ومن هنا.. يمكن أن نتصور الإكراه في طلب الحكم الشرعي منه، وتوجيه الأمر إليه بصورة لابدية ونحوها.

وأما الأمور المهمة التي تبين وجه الخير والشر فيها، وقرّر وجه الجزاء الذي يلحق فعلها، وتركها، فلا حاجة فيها إلى الإكراه، بل للإنسان أن يختار لنفسه ماشاء من طرفي الفعل، وعاقبتي الثواب، والعقاب. والدين لمّا انكشفت حقائقه واتضح طريقه بالبينات والدلائل الإلهيه وذلك عن طريق القرآن والسنة والعقل مما يؤدي إلى قناعة الإنسان بأن الدين، رشد، والرشد في اتباعه، والغي في تركه، والرغبة عنه. ـ وعلى هذا ـ فلا موجب لأن يكره أحدٌ أحداً على الدين.

ومن هذه الآية وغيرها من الآيات نفهم أن الإسلام لم يبن

على السيف والدم، ولم يفرض بالإكراه والعنوة على خلاف ما زعمه بعض الباحثين.. من أن الإسلام دين السيف، واستدلوا عليه بالجهاد الذي هو أحد أركان هذا الدين.

إن القتال الذي ندَبَ إليه الإسلام، ليس لغاية إحراز التقدم وبسط الدين بالقوة والإكراه، بل لإحياء الحق والدفاع عن النفس حيث إن أغلب الجهاد الذي وقع في التاريخ الإسلامي كان من هذا القبيل ولم يكن قتالاً ابتدائياً.

وبعد ما اتضحت معالم التوحيد بين البشرية، فلا نزاع لمسلم مع موحد يهودياً كان أو نصرانياً لأن الرابط بينهم هو التوحيد[1].

وعلى هذا فإننا يمكن أن نتوسع في فهم مقولة ﴿لَآ إِكۡرَاهَ﴾ ونطبقها على كل الأديان، أي: أننا نستطيع أن نلغي الحواجز بين الأديان التي يجمعها التوحيد، واتباع الأنبياء.

وحينما يسقط الإكراه، ويتوجب الاختيار، تكون الكلمة واحدة، فيسقط الإرهاب، وتصادر كل آثاره متمثلة بالعنف والتدمير، وإلغاء الآخر، وفرض المفاهيم الواحديّة عليه.

إن السبب الرئيسي لظاهرة الإرهاب المنطلق باسم الدين هو الفهم الخاطئ للدين، والنظرة التجريدية إليه. فالإرهاب فهم الدين على أنه وجه واحد، وما خالفه من وجوه، فهو باطل. وهذا يؤدي إلى فرض وجهة النظرة الواحدة على الآخرين، وإجبارهم على اعتناقها، وإلا فمصيرهم القتل والتدمير. وهذا خلاف ما يبتغيه الدين، ويهدف إليه من الحفاظ على الوجود الحي والمبدع والحر

---

(1) انظر لذلك مفصلاً: السيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن/ 346 ـ 347، بتصرف.

للإنسان. فلو أن الإرهاب تخلى عن فهمه الخاطئ للدين وتخلى عن إكراه الناس على اعتناق مذهب بعينه، أو دين بعينه لانتفى الإرهاب، وانتفت أثاره السلبية، بانتفاء وسائله التدميرية، ولعاشت الأديان التوحيدية، متراصة نحو هدف واحد، هو أشاعه عقيدة التوحيد بكل اشعاعتها الإنسانية، وبناء إنسان كريم سليم في مجتمع متحضر متطور.

وهذا السبق للإسلام ـ في مجال حرية الاختيار، وحرية العقيدة ـ لا نجده في نظرية فلسفية متقدمة أو متأخرة، كذلك لا نجد ممارسة الحرية بأعلى مستوياتها ـ حرية الاعتقاد ـ في أي نظام اجتماعي. فالأنظمة الإجتماعية القديمة كانت تلزم رعاياها بدين معين، وبفكرة بعينها، تتبناها الدولة، أو قوة لها سلطة فكرية، أو دينية. أما في الإسلام فإننا نرى حرية العقيدة التي هي حرية العبادة. والعبادة أعلى درجات الحرية لان لها خصوصية العلاقة بين الخالق والمخلوق، بين السيّد والعبد المنشدّ إلى سيّده بقوة الروح، وقناعة العقل، واستقامة السلوك.

والمجتمعات الإسلاميه عبر العصور برهنت على وجود حرية الاعتقاد والتعبير عنها لكل الأديان. لهذا نرى أن كثيراً من معتنقي الأديان الأخرى، يبادرون ـ تلقائياً وبقناعة مطلقة ـ إلى الاندماج مع أهل الإسلام من دون قسر، أو إكراه وهذا وحده يكفي لإيجاد قاعدة إيمانية توحد الأديان جميعاً.

مرتكزات ثلاثة

ثلاثة مرتكزات تتفق مع قاعدة (عدم الإكراه) وهي:

1. بناء الإيمان على أساس عقلي

إن الطريق إلى الإيمان، هو النظر والاستدلال الذي يورث القطع واليقين، ولا يجوز الاعتماد على الظن، أو تقليد الآخرين مهما كانوا. وإنما اقتصر على هذا الطريق فحسب لأن المطلوب في العقيدة أن يحصل للمكلف العلم واليقين بربه، ونبيه، وإمامه، ومعاده، وعدله فدعت الشريعة كل إنسان إلى أن يتحمل بنفسه مسؤولية عقائده.

والعقل هو الأصل الأول في معرفة العقيدة، والوصول إلى الإيمان، وهو قوة إدراك الخير والشر والتمييز بينهما، والتمكن من معرفة أسباب الأمور ذوات الأسباب، وما يؤدي إليها، وما يمنع منها، وهو آلة التفكير والنظر لدى الإنسان، ويؤدي العقل وظيفته بالاستفادة من الحواس، ومن المبادئ العامة التي زوّده الله بها كمبدأ العلية، ومبدأ عدم التناقض، وغيرهما.

إن للعقل دوراً فعالاً في الإسلام، وفي الوصول إلى الإيمان، ولا نجد أي مذهب من المذاهب المناوئة للإسلام، اهتم بالعقل كما اهتم به الإسلام، حيث جعله الحجة الباطنية، وجعل الأنبياء والرسل والأئمة عليهم السلام الحجة الظاهرية، فقد ورد عن الإمام الكاظم عليه السلام أنه قال: (إن لله على الناس حجتين: حجة ظاهرة وحجة باطنة. فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء عليهم السلام وأما الباطنة فالعقول)[1].

---

(1) ابن شعبة الحراني: تحف العقول/ 386، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، الطبعة الثانية، مؤسسة النشر الإسلامي.

وكفى بالعقل فخراً أن خاطبه الله تعالى حين خلقه، كما ورد ذلك عن أبي جعفر ـ الإمام الباقر ـ عليه السلام قال: (لمّا خلق الله ـ تعالى ـ العقل، استنطقه، ثم قال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحب إلي منك، ولا اكملتك إلا فيمن أحب، أما إني إياك آمر، وإياك أنهى، وأياك أعاقب، وإياك أثيب)[1].

ويقول إمام البيان والفصاحة أمير المؤمنين علي عليه السلام: (العقل أصل العلم، وداعية الفهم)[2].

وعن الإمام ـ موسى بن جعفر ـ الكاظم عليه السلام: (إن الله تبارك وتعالى أكمل للناس الحجج، بالعقول، ونصر النبيين بالبيان، ودلهم على ربوبيته بالأدلة...)[3].

ويقول سبحانه وتعالى في القرآن الكريم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[4].

إن العقل يفرض على الإنسان التأمل في الخلق والمخلوقات لمعرفة الخالق، وأوضح دليل على ذلك.. تساؤل العقل منذ اللحظات الأولى عن المخلوقات وعن خالقها، بل نجد هذه الظاهرة واضحة جداً عند الأطفال، وقد أطلق عليها غريزة (حب الاستطلاع).

---

(1) أحمد بن محمد بن خالد البرقي: المحاسن/ 1، 192، نشر وتصحيح وتعليق: السيد جلال الدين الحسيني، دار الكتب الإسلامية،

(2) محمد الريشهري: ميزان الحكمة/ 3، 2035.

(3) الشيخ الكليني: الأصول من الكافي / 1، 13، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية.

(4) محمود عبد الرحمن عبد المنعم: معالم العقيدة الإسلامية: 14 ـ 15.

لذا فالمعرفة واجبة، ولما وجبت المعرفة، وجب أن تكون بالدليل وذلك.. لأنها ليست من الأمور الضرورية التي لا يختلف فيها العقلاء كالواحد نصف الاثنين، والكل أكبر من الجزء، والنار حارة، لأنها لو كانت كذلك لما وقع الاختلاف فيها، فيكون النظر والاستدلال واجباً.

كما أنه لا يجوز معرفة الله ـ تعالى ـ بالتقليد، لأن التقليد هو قبول قول الغير من دون دليل. ولقد ذم الله ـ تعالى ـ المقلّدين بقوله :﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[3].

كما ذم أتباع الظن بقوله عز وجلّ: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[5].

كما أنه سبحانه وتعالى حث على التفكير و التأمل في الموجودات بقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ

---

(1) سورة البقرة: الآية 170.
(2) سورة لقمان: الآية 21.
(3) سورة الزخرف: الآية 22.
(4) سورة النجم: الآية 23.
(5) سورة الأنعام: الآية 116.

لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[1]. والآيات الداعية إلى النظر والتأمل والتفكير كثيرة جداً.

إذن تجب معرفة الله عز وجل بالدليل لا بالتقليد[2].

فالإنسان يملك عقلاً، وبالعقل يعرف ربه. فالإيمان إيمان من خلال العقل والإيمان ليس فوق العقل، بل إنه من خلال العقل يتحرك في كياننا. وعندما يتحرك يمكن أن يطوف في آفاق واسعة، قد تعيش فيها روحية لا تفهمها، وإحساساً لا تستطيع تحريكه. ونحن عندما ندرس الإسلام ـ مثلاً ـ نرى أن العقل ـ في بعض الكلمات المأثورة ـ يمثل الرسول الباطني (فالعقل رسول من الداخل والرسول عقل من الخارج) فحتى الرسول تعطيه معنى العقل، لأنه معني بأن يعقلن للإنسان ذاته وكيانه.

(وعندما تنطلق من الداخل ينطلق عقلك، فإن عقلك الذي ينفتح على الله، ويتحرك بكل حرية في الكون، هو رسول من الله جعله في عمق ذاتك. فالعقل هو المركز، والله عندما يخاطبك فهو يخاطب عقلك، وعندما يقوّم عملك، فإنه يقومّه بمقدار ما تحمي عملك بعقلك. . . لقد انحرف بعض القوم عن الإيمان، لأنهم لم يعطوا العقل فرصته لكي يتعمق، ويفكر، ولأنهم قالوا: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[3]. ولأنهم حاولوا تقليد الآخرين.

لذا نؤكد أن لا مشكلة بين العقل والدين. فالدين صنع الكثير

---

(1) سورة فصلت: الآية 53.

(2) فارس علي العامر: عقائد الإمامية في ثوبه الجديد/ 13 ـ 15.

(3) سورة الزخرف: الآية 22.

من عناصر الحضارة، لأنه أعطى الحرية للإنسان في أن يعقل، وأن يحرك العقل وينميه)[1].

2. بناء الإيمان على أساس فهم البشر للدين

إن علم معرفة الله والإيمان به ـ سبحانه ـ هو من أعظم العلوم شرفاً وأكثرها قيمة، بل إن التكامل الحقيقي للإنسان لا يتيسر من دون المعرفة الإلهية، لأن الكمال الحقيقي للإنسان يتحقق في ظل القرب من الله تعالى.

ومن البديهي أنه لا يمكن القرب من الله تعالى من دون معرفته والإيمان به.

إن بعض علماء النفس ـ واستناداً إلى شواهد التاريخ وعلم الآثار ـ يقرون بأن لعبادة الله والإيمان به والتدين بأحكامه دافعاً خطيراً مستقلاً في الإنسان مصدره الشعور الديني. ويعتبرون حس التدين هذا بعداً رابعاً للروح الإنسانية بالإضافة إلى حبّ الاستطلاع، والشعور بالخير، والإحساس بالجمال. ومن هذا يرون أن التدين، وعبادة الله ظاهرة ثابتة ـ بشكل من الأشكال ـ في كل الأجيال البشرية على امتداد التاريخ. وهذا الثبات الدائم لهذه الظاهرة دليل على فطريتها.

ولكن لا يلزم القول بشمولية الدافع الفطري أن يوجد دائماً بشكل حي، ويقظ في الأفراد، بحيث يدفع الإنسان شعورياً لأهدافه المنشودة، بل من الممكن أن يختفي هذا الشعور الفطري في أعماق الفرد نتيجة للعوامل المحيطة، والتربية غير السليمة، كما تنحرف الميول والغرائز عن مسارها الطبيعي للسبب نفسه.

---

(1) السيد محمد حسين فضل الله: تحديات الإسلام بين الحداثة والمعاصرة.

كما أن الإنسان لو لم يبحث عن الدين، ولم يحصل له العلم والمعرفة بالله تعالى، فإنه لا يصل إلى كماله الإنساني المطلوب، بل لا يمكن أن يعد إنساناً على الحقيقة[1].

ولكن هل هناك حقاً حاجة ثابتة للإيمان في حياة الإنسان منذ أن بدأ الدين يمارس دوره التربوي للإنسان، وظل حاجة إنسانية حية باستمرار إلى يومنا هذا؟

يقول الشهيد الصدر (رحمه الله).. قد يبدو ـ بالنظرة الاولى ـ أن افتراض حاجة ثابته من هذا القبيل ليس مقبولاً، ولا ينطبق على واقع حياة الإنسان حين نقارن إنسان اليوم، وإنسان الأمس البعيد لأننا نجد أن الإنسان يبتعد ـ باستمرار ـ بطريقة حياته، ومشاكلها وعوامل تطورها عن ظروف مجتمع القبيلة الذي ظهرت فيه الشريعة الخاتمة (الإسلام) ومشاكله الوثنية، وهمومه وتطلعاته المحدودة. وهذا الابتعاد يفرض تحولاً أساسياً في كل حاجاته، وهمومه، ومتطلباته، وبالتالي في طريقة علاج الحاجات وتنظيمها...

ولكن هذه النظرة على خطأ، فإن التطور في الوسائل والأدوات وتحول المحراث في يد الإنسان إلى آلة يحركها البخار، أو يديرها الكهربائي، إنما يفرض التغيير في علاقة الإنسان بالطبيعة وما تتخذه من أشكال مادية، فكل ما يمثل علاقة بين الإنسان والطبيعة كالزراعة التي تمثل علاقة بين الأرض والمزارع تتطور شكلاً ومضموناً من الناحية المادية تبعاً لذلك...

وأما العبادات ـ أو الإيمان ـ فهو ليس علاقة بين الإنسان والطبيعة ليتأثر بعوامل هذا التطور، وإنما هو علاقة بين الإنسان

---

(1) لاحظ مفصلاً: الشيخ محمد تقي مصباح يزدي: دروس في العقيدة الإسلامية/ 1، 32 ـ 46.

وربه، ولهذه العلاقة دور روحي في توجيه علاقة الإنسان بأخيه الإنسان. وفي كلا هذين الجانبين نجد أن الإنسانية ـ على مسار التاريخ ـ تعيش عدداً من الحاجات الثابتة التي يواجهها إنسان عصر الزيت وإنسان عصر الكهرباء على السواء. والإيمان علاج ثابت لحاجات ثابتة من هذا النوع، ولمشاكل ليست ذات طبيعة مرحلية، بل تواجه الإنسان في بنائه الفردي والاجتماعي والحضاري، باستمرار، وما يزال هذا العلاج حياً في أهدافه حتى اليوم وشرطاً أساسياً في تغلّب الإنسان على مشاكله، ونجاحه في ممارساته الحضارية[1].

إن الإنسان بحاجة إلى الإيمان بالله سبحانه، فهو ـ فضلاً عن كون الإيمان حالة غريزية لابد من إشباعها وتلبية متطلباتها ـ مصدر اطمئنان وثبات وقوة حين يشعر الإنسان أنه لا يقف وحيداً في هذا الكون الرحيب، وأن هناك قوة عظمى تقف معه تشد أزره، وتسدّد خطاه، وتعطيه معنى للحياة...

إن الإيمان بالله يعالج الجانب السلبي في حياة الإنسان فينقله من عالم الضياع، ويضعه على طريق يؤدي به إلى هدف، كما يحرره من الإلحاد، وتداعياته الفكرية والنفسية والسلوكية كما يشعر بالانتماء إلى الله ـ خالق الكون ـ ويضعه موضع المسؤولية، ويشده إلى نظام الكون، فيمارس دوره خليفة عن الله على هذه الأرض.

كما إن الإيمان بالله يعالج الجانب الايجابي في الإنسان، فيخلصه من الغلو في الانتماء، الذي يحدد طريقه ويشكل عائقاً عن اطراد مسيرته.

---

(1) انظر بالتفصيل الشهيد محمد باقر الصدر: نظرة عامة في العبادات/ 10 ـ 26، بتصرف.

إن الإيمان بالله تعالى بوصفه المطلق الذي يستوعب تطلعات المسيرة الإنسانية يوفر للإنسان التحرر من كل العبوديات الوهمية التي تشده إلى الخرافة والجهل، وتجعله يخوض حرباً مستمرة ضد كل ألوان الوثنية، والتأليه المصطنع، والإيمان المزور الذي يقف حاجزاً دون سيره نحو الله، وتحرفه عن هدفه، وتطوق مسيرته.

ولكن الإيمان بالله ـ كغريزة متأصلة ـ لا يكفي لتحقيق الارتباط بالمطلق إذا لم يلازمه شعور عميق بالتطلع نحو الغيب، والانشداد إلى المطلق، بتعميق هذا الشعور، وصياغته فكرياً وترسيخه عملاً وسلوكاً لكي يتناسب مع المشاعر الأصيلة في الإنسان ومع دوره في أعمار الأرض.

إن الإيمان بالله سبحانه يوفر للإنسان فرصة تجاوز الذات وكبح الأنانيات، والاندفاع نحو العمل من أجل الجماعة بدافع الإيمان الذي يولد القناعة بالجزاء الآجل عوضاً عن الجزاء العاجل.

وكثيراً مايرد التعبير (في سبيل الله) في الآيات القرآنيه والأحاديث النبوية الشريفة، وفي المفاهيم الإسلامية العامة ليعبّر عن الشعور المتنامي والمتصاعد للبذل بالمال والنفس والنفيس إرضاء لله، وخدمة الجماعة، ورجاء في جزائه الآجل. وهذا أرقى أنواع البذل لأنه بذل عاجل مادي مقابل آجل معنوي. وفرق بين إنسان نشأ على البذل من أجل الله وتربى أن يعمل بدون انتظار التعويض وبين إنسان نشأ على أن يقيس العمل دائماً بمدى ما يحققه من مصلحة ذاتية، ومنفعة شخصية.

كما إن الإيمان بالله ـ تعالى ـ يهيء له شعوراً عميقاً بالمسؤولية، يحتاجها الإنسان في حياته، وكذلك بين سعيه لإرضاء

رغباته الأرضية وبين ابتغائه الدار الآخرة، وعند ذلك ـ وبفضل الإيمان ـ تنخلق عنده رقابة ذاتية، وقوة نفسية وقناعة عقلية تؤمن أنه لا تغيب عن الله مثقال ذرة من عمل صالح، أو طالح في السماء أو في الأرض.

وهذا نوع من المران العملي، ينمو من خلاله، ويترسخ هذا الشعور بتلك الرقابة الشاملة، ويتسع هذا الإحساس بها.

إن الإيمان الذي هو نتاج عقلي وشعور وجداني يشترك به كل بني الإنسان، وخاصةً المتدينين يمكن أن يكون عامل توحيد، ويمكن أن يكون عامل تطوير لمفهوم الدين. فالإيمان يشترك فيه الإنسان البسيط ذو الثقافة المحدودة، والمعرفة العامه بأمور الدين، والإنسان المثقف الذي استوعب ثقافة عصره، ولكن التعبير عنه مختلف من حالة إلى حالة ومن عصر إلى آخر، ويمكن أن ينعكس هذا التعبير عن الإيمان على فهم الدين وتطبيقه، والعمل به.

وكذلك العمل على الوصول إلى الإيمان بطرق مختلفة تعتمد الفطرة تارة، والعقل تارة أخرى، والحس ثالثة، والحدس رابعة... وتكريس الحقائق الكونية، أو الإنجازات العلمية، والمناهج الفكرية للوصول إلى الإيمان بالحقيقة المطلقة.. هذه السبل المختلفة تخلق طرقاً فكرية، ومناهج عقلية توسع من مفهوم الدين، وتطور من معناه، وتوسع في تطبيقاته، وتحدد من مناهج فهمه، فيبدو الدين في كل عصر ملائماً ومنسجماً مع حقائق عصره، وملبياً إلى أشواق أهله.

3. بناء الإنسان على أساس علاقة الدين بالإنسان

الدين نزعة فطرية في الإنسان، وقد جاءت الأديان السماوية

لكي تلبي متطلبات هذه النزعة الفطرية. فقد بعث الله ـ بلطفه ـ الأنبياء عليهم السلام لكي يشبعوا نزوع الإنسان إلى الدين فجاءوا بأحكامه وشرائعه التي تنظم حياة الإنسان: فرداً، أو فرداً في جماعة، أو مجتمعاً. وعلى هذا ارتبط الدين بالإنسان منذ أن وطأت قدماه هذه الأرض، فضلاً عن تكريم الله له وجعله خليفة في الأرض، يعمل بأحكامه لأعمار هذه الأرض بقيم الخير والنماء، والحب، والتكافل.

وإذا استعرضنا أحكام الأديان السماوية لرأيناها مرتبطة ـ أداءً ونفعاً بالإنسان، فهي جاءت من أجل الإنسان لكي تحدد العلاقة المصيرية بالله، وبالكون، وبأخيه الإنسان فشعائر الدين ـ كالصلاة والصوم والزكاة والحج. . . فضلاً عن كونها أموراً عبادية تعبدية يؤديها الإنسان طاعةً له، واستجابةً لأوامره وفروضه، فهي تهدف إلى تربية الإنسان وتفجير طاقاته الروحية، وتنمية قابلياته النفسية، وتقويم سلوكه الفردي والاجتماعي. فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والصائم تصوم جوارحه عن معصية الله، والزكاة حق معلوم في المال للسائل والمحروم، والحج تجسيد للمساواة بين بني البشر، وتذكير بموقف الإنسان يوم القيامة.

والأحوال الشخصية المتعلقة بالإنسان كالزواج والطلاق والميراث والوصية، ما هي إلا عقود اجتماعية تنظم حياة الإنسان مع الإنسان الآخر. فالزواج علاقة إنسانية دائمة قائمة على المودة والرحمة، والطلاق حل لمشاكل عالقة بين متنافرين، والميراث إيصال الحق إلى أهله وفق نظام اجتماعي واقتصادي حكيم. والوصية حفظ حق الإنسان بالتصرف بماله بعد وفاته، ويعني ذلك استمرار دوره بالحياة بعد رحيله عنها.

وكذلك ما يتعلق بالمعاملات فالدين ـ كما يعبر الرسول

الكريم ﷺ ـ (المعاملة). وتنكشف حقيقة الإنسان ومدى التزامه بالدين من خلال تعامله مع الآخرين. والأمانة والصدق سلوك إنساني كريم يحضّ عليه الإسلام في التعامل مع الآخرين.

فالدين أنزل لصالح الإنسان، وتنظيم حياته، وموازنة سلوكه، وربطه بقوة عظمى تجعله مشدوداً إلى هذا الكون الفسيح دون أن يشعر أنه وحيدٌ فيه، منقطع عما حوله.

والدين في كل تشريعاته وتفصيلاته هدفه بناء الإنسان ـ كما أراده الله ـ بناؤه نفسياً، وفكرياً، وروحياً، وجسمياً، وخلقياً. بناؤه مع المحافظة على سلامة الفطرة التي فطره الله عليها، ومع ربطه بخالقه العظيم الكريم، ومع الكون من حوله، ودمجه ضمن مجتمع إنساني متجانس، يشعر أنه ينتمي إلى الإنسانية الجامعة دون تمايز، أو فوارق، أو حدود وقيود.

وحينما يكون هدف الدين بناء الإنسان على أساس سليم من التوحيد، وخلافة الله في الأرض، وأداء مهام الاستخلاف على أساس مفاهيم الدين وقيمه، يكون المنطق واحداً والهدف واحداً والسبيل إليه واحداً. وعند ذلك تتوحد الأديان على الرغم من اختلافها في التفصيلات تبعاً لاختلاف ظروف إنزالها، ويتوحد الإنسان في سلوكه وتوجهاته، فتنتفي الخلافات المفتعلة بين بني الإنسان وتسقط الحواجز بين الأديان ويعود الدين لله، وتتكرس خلافة الإنسان على هذه الأرض ويقوم إعمارها على المحبة والتسامح والتكافل، والتعاون، واحترام الآخر: عقلاً وفكراً، جسماً وعملاً وسلوكاً، وبذلك يؤدي الدين مهمته في بناء الإنسان، التي تؤدي إلى وحدة بني الإنسان، والى وحدة ما أنزل الله من أديان، وخاصة أن الدين يسلك سبلاً شتى لكنها متناغمة متكاملة في بناء الإنسان تقوم على الترغيب والترهيب وعلى الثواب،

والعقاب وعلى إشباع ضرورات الدنيا وصولاً إلى إحراز كمالات الآخرة. موازناً بين متطلبات الجسد وأشواق الروح وتطلعات العقل.

هذه المرتكزات الثلاثة تكرس مفهوم ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾

فالإنسان ذو العقل السليم (الفطري) لابد أن يختار أولى المفاهيم والأفكار لنفسه مع احترامه للرأي الأخر.

والإيمان الذي يحترم تطورات العصر، والفهم الحركي لمهمة الدين الذي يقوم على مواكبة الأحداث، والتفاعل معها والتصدي لحل مشاكل العصر، لابد له من أن يحترم تجارب الآخرين الروحية والعقلية.

والإنسان الذي يُبنى وفق مفاهيم الدين وقيمه، ويدرك عمق ارتباطه بالدين وضرورته، يلتقي مع الإنسان الآخر إلى أي دين ينتمي مادام الأساس واحداً، والهدف واحداً.

ويبقى الاختيار الحر المبني على قناعات عقلية حرَّة هو الفيصل في الأمر، والإنسان ذو التدين الخالص، المتجرد لله سبحانه، والطارح لكل الأحكام المسبقة جانباً. الباحث عن الحقيقة، والدائب للوصول إليها. ـ هذا الإنسان ـ سوف يختار الدين ـ الدين مطلقاً ـ بجوهره العميق، وحقيقته المطلقة، وإنسانيته الكريمة، وعقلانيته السليمة، وتلبيته لاحتياجات الإنسان في كل زمان ومكان. ولنفترض أن أنبياء الله سبحانه اجتمعوا في مكان واحد وزمان واحد، فكيف يكون حالهم مع بعضهم البعض؟

قطعاً.. إنهم يكونون كياناً فكرياً واحداً، وسلوكاً إنسانياً واحداً، وهدفاً توحيدياً واحداً، فما بال أتباعهم متناحرين؟ ولم لا يكونون منظومة اجتماعية واحدة، وعقلاً توحيدياً واحداً، ووجداناً يفيض بالحب والعطاء والمودة كما هو حال أنبيائهم الكرام؟

المحور السادس

الظواهر العملية والوقائع...
عشرة ظواهر دولية

توطئة:

يعيش العالم الإسلامي ـ منذ عدة عقود ـ ظروفاً سياسية واجتماعية معقّدة مما أفرز بعض الظواهر الإجتماعية والسياسية، كما أن التركيب الاجتماعي المتنوع والمعقد أفرز ظواهر أخرى أهمها الصراع بحثاً عن موقع اجتماعي أو سياسي أو عقائدي أفضل.

ولعل ظاهرة العنف والإرهاب من أهم الظواهر التي أفرزتها العقود الأخيرة وكان من أسباب هذه الظاهرة: شعورُ كثيرٍ من الفئات بالغبن، والظلم الاجتماعي، والاضطهاد السياسي.

وكذلك وجود قوات أجنبية جاءت لفرض إرادتها السياسية ومنظومتها القيميّة على الأرض الإسلامية.

ونضيف إلى ذلك الفهم الخاطئ للدين، والتعبير عنه تعبيراً مشرعناً.

وكذلك تحسس بعض الأقليات الدينية والمذهبية والعنصرية بقوتها نتيجة للتغيرات السياسية والاجتماعية في أقاليم العالم

وخاصةً العالم الغربي، الذي استطاع أن يقدّم انجازات علمية وتكنولوجيه في العصر الحديث مما جعله يتميز، ويشعر مواليه بقوته وتميزه.

ولا نغفل التيارات الفكرية والمفاهيم السياسية التي يدعو إليها الغرب ويحث على تبنيها، وتطبيقها كما في مفهوم العولمة، والديمقراطية، والحرية، وحقوق الإنسان، والمواطنة. وحاولت الأنظمة السياسية الغربية فرضها على المجتمعات الإسلامية ما ولد صراعاً بين قيم مقدّسة متوارثة، وبين قيم جديدة.

كل ذلك أدى إلى ظهور ظواهر عملية واقعية نتناولها فيما يلي:

أولاً: العراق: ظاهرة الإرهاب

يبدو أن العراق، بلد متهيء لنشوء ظاهرة الإرهاب في حال غياب السلطة المركزية القوية لأسباب أهمها:

1. النسيج الاجتماعي للشعب العراقي، فهو مكون من مكونات متعددة متناقضة.

2. التركيبة النفسية للشعب العراقي والتي تشكلت على مدى عقود وقرون وعصور. وقد مرت ـ كما مرّ العراق ـ بأحداث عنيفة نتيجة الغزوات الكثيرة التي مر بها العراق، فهو ممر لكل الطرق التي تربط الشرق بالغرب، وهو كذلك مكان خصب يطمح ويطمع فيه كل من يبحث عن الرغادة والرفاه.

3. وجود مناطق ودول محيطة بالعراق، لا تريد للعراق بأن ينهض، ويكوّن تجربة جديدة تكون نموذجاً في المنطقة، كما أن بعض هذه الدول يحاول أن يصدّر مشاكله إليها، أو أنه يطمع في

استغلال ثرواته الكثيرة الوفيرة لبناء اقتصاده، وحلّ مشاكله، كل ذلك جعل العراق ساحة مهيأة للنشاط الإرهابي بعد سقوط نظام البعث الذي كان يمسك العراق بيد من حديد وبقبضة مركزية قوية.

إن الإرهاب في العراق يتقنع بعدة أقنعة، ولعل أهمها قناع (مقاومة المحتل الأمريكي) وهو قناع زائف أثبت عدم صدقه من خلال تعامل قيادات المقاومة هذه مع الأمريكان بطريقة مكشوفة، مباشرة وغير مباشرة، مما يلقي ظلال من الشك على صدق نوايا هذه المقاومة.

كما إن العامل الطائفي يلعب دوراً مهماً في تفعيل حركة الإرهاب مما يجعله يتخذ طابعاً مقدساً يدفع بالتضحية بالحياة. وهو شعور وهميّ نمّته بعض العناصر السنية ضد عدوّها التاريخي المفترض (الشيعة) والشيعة ـ كما هو مذهبهم وتوجهاتهم، وكما أثبتت التجارب التاريخية ـ قوم مسالمون ممتلئون وطنية وغيرة على الدين، يملكون القدرة على التضحية والقتال لكنهم يمتنعون عن قتل الإنسان فهو أخوهم في الدين أو في الخلق لهذا يمتنعون عن رد العنف بالعنف إلا في حاله الدفاع عن النفس، وإشعار الخصم بأنهم يملكون القوه على الرد والردع.

كما إن هناك قوى داخليه تشجع الإرهاب وتموله ـ على الرغم من رفضها له ظاهرياً ـ وذلك لإشغال السلطة المركزية وإضعافها ولتقوية مراكزهم السياسية، وتحقيق مطامعهم الإقليمية.

ويبدو أن إيران ليست ببعيدة عن أعمال العنف التي تحدث في العراق أحياناً من خلال بعض التنظيمات المسلحة، ولكنه عنف لا يدخل في دائرة الإرهاب وإنما هو موجه في الأساس إلى القوات الأمريكية لإبعادها عن حدودها ـ إيران ـ وأراضيها، لكي لا تجعل العراق منصة للقفز لإسقاط التجربة الإسلامية في إيران.

وهو عنف رمزي يقع هنا أو هناك هدفه إشعار الأمريكان بوجود قوى تستطيع إيذائهم.

إن أهداف الإرهاب في العراق غير واضحة المعالم، أو محددة، وغلبت عليها الرغبة في القتل العشوائي، والتدمير للحياة وهي تدل على النفس الإجرامية التي تحرك دوافع الإرهابيين.

ولو دققنا في طبيعة الإرهاب في العراق لوجدنا أن من يقوم به ويقف وراءه تنظيمات حزب البعث العسكرية فإن الدعم اللوجستي للإرهاب يقوم به بقايا تنظيمات حزب البعث من مخابرات واستخبارات وأمن خاص، وفدائيي صدام، فهم: يجمعون المعلومات ويحددون الأهداف، ويمولون العمليات بالمال والسلاح. أما عناصر القاعدة المتحالفة مع حزب البعث فما عليها إلا تنفيذ العمليات الانتحارية التي يتخاذل البعثيون عن تنفيذها.

إن الأمريكان الذين أرادوا أن يكون العراق ساحة لتصفية حساباتهم مع الإرهاب، لم يكونوا جادين ولا مخلصين في ذلك فكان العراق وشعبه ضحية السياسة الأمريكية الخاطئة، لأن الأمريكان بحجة دعم العملية السياسية تساند القوى التي أجبرت على المشاركة في العملية السياسية والتي لها امتدادات إرهابية تحقق من خلالها أهدافها السياسية.

إن دعم الأمريكان لهذه القوى السياسية في الظاهر والإرهابية في الخفاء جرّ على العراق وشعبه الويلات بحجة الحد من النفوذ الإيراني في العراق. وقد غاب على الأمريكان أن النفوذ الإيراني - وكل نفوذ آخر - لا يحد ولا يقلص إلا بقيام حكومة وطنية قوية قادرة على اتخاذ قرارات مستقلة يراعى فيها المصالح الوطنية للعراق والعراقيين. وهو ما لا تفعله أمريكا، ولا تريده.

وأما موقف السلطات المركزية العراقية من الإرهاب، فيبدو ضعيفاً ـ أحياناً ـ عاجزاً، وذلك:

1. انشغال هذه السلطات بصراعاتها السياسية التي استنزفتها.

2. تسلل بعض القيادات التي تتخذ الإرهاب وسيلة لتحقيق مكاسب سياسية إلى المفاصل المهمة في الدولة والى مراكز صنع القرار.

3. ولضعف الأجهزة الأمنية العراقية تدريباً وتسليحاً.

4. ولاختراق عناصر كثيرة من تنظيمات حزب البعث أجهزة السلطة والأجهزة الأمنية مما أعطاها حرية الحركة. والقدرة على تغطية فعاليات الإرهاب، والإمساك بعنصر المبادأة، مما يجعل السلطات تقف عاجزة مبهوتة حائرة اتجاه ما يحصل.

إن سعة الأرض التي ينشط فيها الإرهاب ـ وتمتد أحياناً لتشمل عملياته العراق من شماله وجنوبه وشرقه وغربه في عمليات منسقة تقع في وقت واحد ـ دليل على أن القوى التي تقف وراءها قوى منظمة تمتد على طول الساحة العراقية وعرضها وتمتلك معلومات استخباراتية دقيقة، وتعرف الأهداف المؤثرة، وقادرة على الوصول إلى ما تريد وحيث تريد وفي الوقت الذي تريد. هذه القوى هي تنظيمات النظام السابق التي كانت تعمل فوق الأرض وأمست تعمل ـ بعد السقوط ـ تحت الأرض.

أما تنظيم القاعدة ـ وهو تنظيم بدويّ ـ فلا يملك هذه القدرات وهو عاجز عن تحديد الأهداف، والوصول إليها إلا عن طريق حزب البعث.

إن الدولة العراقية إذا أرادت أن تقضي على الإرهاب وتحمي الشعب العراقي ومنجزاته السياسية، وممتلكاته الوطنية فعليها:

1. أن تعيد النظر بشركائها في العملية السياسية.

2. وأن تلاحق عناصر حزب البعث بجرائمهم السابقة واللاحقة.

3. وأن تطهر الأجهزة الأمنية من كل العناصر السيئة والمتواطئة مع الإرهاب والمتخاذلة في حربه.

4. وأن تصدق النية في حربها ضد الإرهاب من خلال خطة إستراتيجية أولها إنزال العقوبات بالإرهابيين وتنفيذها، ثم قبل كل ذلك وبعدها إصلاح شأنها لكي لا تعطي مبرراً للإرهاب.

5. وأن يقوم بتشكيل حكومة قوية كفوءة نزيهة، مخلصة، منسجمة تعمل كفريق واحد لتحقيق هدف واحد، هو حياة العراق وأهله، وليقل القائلون ما يشاءون، فإنهم ـ عند ذلك ـ يكونون عاجزين عن فعل شيء وسيلته الإرهاب، وهدفه تدمير العراق وشعبه.

ثانياً: لبنان: التعددية الدينية مشروع وئام أم مشروع احتراب

لبنان جزء من بلاد الشام، وقد تعرضت بلاد الشام لغزوات أشهرها الغزو الصليبي الذي ترك أثاره ـ بعد أن اندحر ـ على شواطئها ـ بلاد الشام ـ وأهم هذه الآثار،الظاهرة السكانية المسيحية على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، ثم تعرض بلاد الشام إلى السيطرة العثمانية، فتعرضت بذلك إلى تغيير سكاني (ديمغرافي) أيضاً، وحينما نقف عند القرن التاسع عشر الميلادي نرى بداية اضمحلال الدولة العثمانية، ومعه قوة التدخل الغربي في شؤونها، وكانت بلاد الشام أظهر مظهر لهذا التدخل فقد تدخلت الدول الغربية ـ وأكثرها تدخلاً فرنسا ـ في الشؤون الداخلية لبلاد الشام

بدعوى حماية المسيحيين، وأماكن العبادة المسيحية ثم تطور ذلك إلى قيام مؤسسات مسيحية غربية - أو بدعم غربي - في الجزء الصغير من بلاد الشام، والمطل على البحر المتوسط، والذي يسمى (لبنان) الذي أصبح مركزاً لانطلاق الفكر المسيحي، والتبشير المسيحي من خلال مؤسسات علمية دينية كالجامعات، والمطابع، والمؤسسات الكنسية الأخرى، ولاشك أن هذه المؤسسات لعبت دوراً بارزاً في اليقظة العربية، وتكوين الفكر العربي الحديث، ولكنها كانت متلبسة بأهداف دينية واضحة، وكان لها نشاط سياسي يتقاطع مع التوجهات العامة للدولة العثمانية. ومن أحضان هذه المؤسسات المسيحية انطلقت الدعوة إلى القومية العربية.

وحين سقطت الدولة العثمانية أصبح جزء من بلاد الشام (سوريا ولبنان) تحت السيطرة الفرنسية، وأصبح الجزء الأخر (فلسطين وشرق الأردن) تحت السيطرة البريطانية. ولأن توجه فرنسا، كان مسيحياً فقد اهتمت بشكل خاص بإسناد النشاط المسيحي في لبنان الذي أصبح مركزاً لانطلاق الفكر المسيحي والتبشير به بمختلف طوائفه واتجاهاته. وهكذا تبلور النشاط المسيحي الفكري - التبشيري - ليأخذ طابعاً سياسياً يخدم دول الغرب المسيحي. وبعد إعلان استقلال لبنان عام 1943م فرضت فرنسا تصوراتها السياسية والدينية على الكيان اللبناني الوليد، فجعلت للمسيحيين وجوداً سياسياً ثابتاً في مراكز الدولة المهمة مما أصبح تقليداً سياسياً ثابتاً يعمل به إلى يومنا هذا.

ولكن التطورات السياسية والاجتماعية اللاحقة في العالم، والمنطقة بشكل خاص، جعل الأوضاع في لبنان تعيش حالة من الحراك السياسي يخرج به عن المتواضع عليه. فقيام الثورة المصرية عام 1952م وبعدها الوحدة العربية عام 1958م نمّى المشاعر

العربية، وأطلقها على حساب المشاعر الدينية، وقيام الصراع العربي ـ الصهيوني في فلسطين والنكسات العسكرية العربية عمَّق الشعور بالمرارة وعمَّقت مشاعر الغضب والسخط على دول الغرب المسيحي، وتحسس الشيعة بوجودهم ـ وهم أكثر من ثلث سكان لبنان ـ جعلهم يطالبون ويسعون إلى دور أكبر. ودعم بعض دول المنطقة السنية لسنة لبنان دفعهم للاحتفاظ وبإصرار بمركز القرار والسلطة التنفيذية. أما الدروز ـ وبفضل قيادتهم السياسة الجريئة والمتحررة ـ فقد أصبحوا يمثلون بيضة القبان في السياسية اللبنانية.

إن لبنان بطوائفه المختلفة، دخل في دوامة الصراع السياسي على السلطة، والثروة، بدوافع داخلية، وعوامل خارجية، هي جزء من صراع القوى في المنطقة: قوى إقليمية، وقوى عالمية. ولا ننسى ما للدور الصهيوني في خلق الأزمات، وافتعال الصراعات وإثارة النعرات في توسيع شقة الخلاف بين أطياف الشعب اللبناني.

إن بلداً متحضراً مثل لبنان يتمتع بكل أسباب الحياة: حرية حقيقية، مركز استراتيجي مهم، طبيعة خلابة جذابة، شعب يعشق الحياة، والتقدم والتطور، يمكن أن يكون واحة جميلة يلوذ بها كل شعوب المنطقة هرباً من جحيم العنف والتخلف والاضطهاد، ويمكن لأهله أن يكونوا نموذجاً للتعايش السلمي. والتفاهم الإنساني العميق إذا أحسنوا فهم بعضهم بعضاً، وإذا أدركوا مصالحهم، وإذا وعوا دورهم الحضاري، واستفادوا من مركزهم التجاري.

إن لبنان بكل طوائفه وأطيافه معرَّض أن يكون ساحة حرب تصفّي بعض الدول حساباتها مع الدول الأخرى، وأن يكون مركز صراع واحتدام لتحقيق مصالح بعض الدول على حساب دول أخرى، ويكون وقودها الشعب اللبناني مستغلين في ذلك التركيبة السكانية المتنوعة.

إن هذه التركيبة السكانية المتنوعة هي مجموعة أطياف يمكن أن تتعايش مع بعضها إذا انقطعت عن الامتثال لتوجيهات الأجنبي وأوامره، وإذا جعلت الكيان اللبناني وسلامته ووضعه الخاص بالاعتبار خاصة إن هذه الأطياف متكاملة، وغير متقاطعة يجمع بينها حب الحياة، وحب لبنان.

ثالثاً: اضطرابات سوريا: مدعيات دينية

إن المجتمع السوري، ذو تركيبة اجتماعية ودينية خاصة، تشكلت على مدى عصور مديدة، وإذا نظرنا إليه في العقود الأخيرة، أي: بعد تشكيل الدولة السورية الحديثة في منتصف الأربعينيات من القرن الماضي لوجدناه متكوناً من أغلبية سنية تدين بالمذهب الحنبلي، وأقلية شيعية علوية، ثم درزية، ومسيحية. وكانت السلطة طوال خمس وعشرين عاماً متمركزة بيد السنة، لا لكونهم يدينون بالمذهب السني، بل لكونهم عرباً قوميين، وهو الاتجاه الغالب على الفكر السياسي في سوريا، ومن ثم كانت سوريا منطلقاً لأغلب الدعوات والأحزاب القومية. والعلمانية غالبة عليها. حتى قيام انقلاب (8 آذار) وتسلم حزب البعث السلطة، وكان الحاكمون خليطاً من السنة والعلويين لكن يدينون بالولاء لفكر حزب البعث القومي العلماني. ثم حدثت انشقاقات في صفوف السلطة انتهت أن يتولى حافظ الأسد السلطة. وكغالبية الحاكمين الذين ينفردون بالسلطة اعتمد على ذوي مذهبه في إشغال المراكز الأمنية الحساسة لكي يحمي نفسه، ويحمي نظامه، مما خلق طبقة مماثلة في الانتماء المذهبي تسيطر على المفاصل المهمة في نظام الحكم السوري، ولكن بقيت المكونات الأخرى تمارس دورها في عالم السياسة والثقافة والاقتصاد وهو دور غير ثانوي على كل حال.

وبعد وفاة الرئيس حافظ أسد انتقلت السلطة ـ بقرار حزبي ـ إلى ابنه بشار الأسد. وكذلك ينتمي ـ بشار ـ إلى الطائفة العلوية اسماً ونسباً، ولا ينتمي إليهم فكراً وممارسة وشعائر لكنه وجد نفسه محاطاً بأتباع أبيه (حافظ) وأشياعه، وأغلبهم من العلويين.

إن فكر حزب البعث فكر قومي غير ديني، ومن الطبيعي أن يتقاطع مع الفكر الديني الطائفي لكن ضروريات السياسة وأحكامها ومتطلبات السلطة وإلزامها حتمت على الحكم في سوريا أن تعتمد على عناصر ـ في أغلبهم ـ ينتمون إلى طائفة بعينها. وهذا ما كان يحدث في العراق، فقد اعتمد حزب البعث في العراق على الطائفة السنية دون الطائفة الشيعية وهم الأغلبية ـ وكان نظام البعث يحركهم ـ خاصةً في فترة حكم صدام حسين ـ بروح طائفية حاقدة مجرمة وجعل بعض القطاعات الوظيفية حكراً عليهم، وبعض المراكز الأساسية مغلقة لهم. وصدام حسين لا يؤمن بالشيعة ولا بالسنة، وإنما كان يؤمن بنفسه فقط ويجند كل التناقضات ـ التي يفتعلها هو ـ لخدمة نظامه وحماية نفسه. وهذا شأن كل الطغاة في كل زمان ومكان.

ان صعود التيارات الإسلامية السلفية في المنطقة ـ ومنها سوريا ـ ودعم بعض الدول لهذه التيارات كالسعودية ودول الخليج، ورغبة بعض الدول الكبرى كأميركا وبريطانيا في إحداث تغيير لصالحها وصالح إسرائيل، وعجز النظام السوري عن تطوير نفسه لكي يلبي حاجة السوريين السياسية والإقتصادية والفكرية، كل ذلك جعل بعض العناصر تتحرك في داخل سوريا وخارجها ـ وإن كان تحركها ذا طابع دعائي إعلامي مبالغ فيه ـ لإسقاط النظام وتغييره. ولكن تقف في وجوههم قوة النظام، وولاء الجيش، وعدم الرغبة في إلقاء سوريا في المجهول، وفي حالة الصراع المعلن والمحتدم

بين سوريا والكيان الصهيوني. وعلى هذا لا يمكن اعتبار ما يحدث في سوريا صراعاً طائفياً إلا من وجهه نظر من يريد للأمور أن تكون كذلك. وهذا ما لا يمكن أن يكون لأن الصراع ليس فكرياً، ولا دينياً وإنما هو صراع على السلطة، وصراع من أجل مصالح دول أخرى تريد لسوريا الانكسار، وتريد لشعبها الاندحار. ونحن بهذا لانؤيد مايحدث بسوريا من أحداث عنف، ومواجهات مسلحة من قبل النظام الحاكم أو معارضيه، لأن في ذلك زعزعة للأرض تحت أقدام أهلها، وإحداث حالة من عدم الاستقرار تستفيد منه إسرائيل.

إننا نؤمن أن على الشعب السوري أن يحل مشاكله بالحوار وبإسلوب سلمي، وأن على النظام أن يجري إصلاحات سياسية سريعة تتجاوب مع ضرورات العصر كالانتخابات الحرة، برلمانية ورئاسية ورفض قبضة الحزب الواحد على السلطة وإجازة الأحزاب السياسية، والتعددية. وإطلاق الفضاء لكل التيارات الفكرية أن تعبر عن نفسها بحرية واستقلال. عند ذلك سوف تستعيد سوريا عافيتها واستقرارها ويختار كل فرد ما يحب ويريد.

رابعاً: أقباط مصر: مشكلة

الأقباط هم سكان مصر قبل الفتح الإسلامي، وهم من عناصر وأجناس شتى يجمعهم الإيمان بالمسيحية، ولهم كنيستهم الخاصة، وقد عاشوا في ظل الدولة الإسلاميه المتعاقبة على حكم مصر رعايا لهذه الدول. ترعى مصالحهم، وتحفظ حقوقهم، وتحميهم، وتدافع عنهم، وتحترم عقائدهم وشعائرهم. حتى كان العصر الحديث ـ عصر الاستعمار ـ حين غزت بريطانيا مصر، ومن قبلها فرنسا، فتطلّع الأقباط إلى دور أكبر في الحياة، والاقتصاد، والسياسة، وكان لهم ما أرادوا بحكم الرابطة الدينية التي تربطهم

بالدول المستعمرة، ولحاجة هذه الدول إلى أناس مخلصين، يساعدونهم في حكم البلاد وإدارتها، ومن هنا كانت (الحساسية) من الأقباط، كما أن سلوكهم المتحرر الذي ينكره المسلمون كان سبباً من أسباب التباعد بينهم.

ولكن نشوء الحركة الوطنية المصرية في أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، وانخراط بعض الأقباط فيها، قرب بينهم وبين المسلمين بجامع الروح الوطنية المصرية، حتى تسلم بعضهم قيادة الحركة الوطنية (مكرم عبيد) الذي أصبح زعيماً من زعماء حزب الوفد المصري، وبقيام الثورة المصرية عام 1953م وانفتاحها على الفكر القومي العربي العلماني، زاد اندماج الأقباط بالمجتمع المصري وزاد دورهم في الحياة الإجتماعية والسياسية والثقافية.

ومع ضعف التيار القومي العربي بوفاة قائده جمال عبد الناصر عام 1970م وبتصاعد مدّ التيارات الإسلامية المعتدلة منها والمتطرفة وللانجازات التي قدمتها الحضارة المسيحية، وتعاظم دور الدول المسيحية في العالم مما جعل الأقباط يتحسسون وجودهم، وللأيدي الخفية المعادية لمصر والعرب والإسلام، كل ذلك خلق الأجواء المثيرة للفتنة والاصطراع. فكانت تقوم الفتنه ـ مفتعلة أو تلقائية ـ بين الحين والحين مما لفت إلى ذلك الأنظار وجعل ذلك مشكلة.

إن الأقباط لايشكلون أقلية في مصر، كما أن وجودهم التاريخي يمتد إلى قرون وقرون فهم جزء من تاريخ مصر وثقافتها وحضارتها، ووجودهم المكاني يمتد على طول مصر وعرضها، فلا يمكن ـ على هذا ـ أن يكون لهم إقليم خاص، أو ينفصلون ببلاد مستقلة، ويكون لهم كيان خاص. إنما عليهم أن يحاولوا زيادة

إمكانية اندماجهم بالمجتمع المصري، وأن يصبحوا جزءاً من نسيجه. وأن يكون شعورهم وتوجههم مصرياً، وإبداعهم من أجل مصر وأن يكفوا عن النظر إلى خارج حدود مصر متطلعين إلى قوى أجنبية أثبتت عدم جدارتها في مساعدتهم، وحمايتهم.

كما أن على المجتمع المصري ـ وخاصةً الإسلامي ـ أن يكبح جماح التيارات الاسلامية المتطرفة التي تنظر إلى المسيحي كإنسان كافر، بل تنظر إليه على أنه إنسان، ثم بعد ذلك مسيحي يؤمن بالله، وقيمه وشعائره التي يجب أن نحترمها، ونحميها. فالإنسان ـ على حد قول الإمام علي عليه السلام: ـ أما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق.

وواجب الأزهر الشريف وبقية المؤسسات الدينية الإسلامية أن تتبنى هذا الاتجاه المعتدل السليم، وتشيعه بين الناس، وتجعله منهاجاً اجتماعياً يعمل به، كما عليها أن تكبح وتفضح كل الدعوات المتطرفة وأساليب العنف التي تمارس ضد الإنسان أي إنسان وعلى الحكومة المصرية أن تقوم بدور الراعي والحامي لكل قطاعات المجتمع من دون تمييز بين فرد وآخر، وجماعة وأخرى، وأن تشرّع القوانين التي يكون الناس أمامها متساوين متكافئين. كما عليها أن تراعي خصوصية كل فئة وتحترمها وتحميها. وبذلك تزول المشكلة، وينتفي الصراع المفتعل.

إن على المصريين: مسلمين وأقباطاً.. أن يحافظوا على وحدة مصر بالحفاظ على وحدتهم، وسلامة مصر بسلامة مجتمعهم، وألا يستجيبوا للدعوات المغرضة التي تأتي من هنا وهناك، وألا ينفعلوا وينخدعوا بالمكائد التي تنصب لهم فما ذلك إلا من مكائد الصهيونية، ومصائدها.

خامساً: تجربة الجزائر: التسعينات وما تزال

الجزائر، بلد مسلم، رزخ تحت الاستعمار الفرنسي مدة طويلة 1830م ـ 1962م وقد واجه الاستعمار الفرنسي ثورات عديدة ومقاومة شديدة طوال هذه المدة، فتاريخ الجزائر مصبوغ بالدم، وقد وصفت الجزائر بأنها بلد المليون شهيد.

وقد كان الاستعمار الفرنسي شرساً في قمع هذه الثورات، كما كان شرساً في فرض سياسته وثقافته ولغته ودينه على الجزائريين ولكن الروح الإسلامية التي كان يستند إليها الجزائريون منعت الذوبان، وقاومت الطغيان.

ثم استقلت الجزائر ـ بفعل مقاومتها وقوة إرادتها وصدق عزيمتها ـ ودخلت مرحلة البناء والاستقرار، لكن روح العنف وثقافة المقاومة والالتجاء إلى السلاح لحل مشاكلها ظلت سائدة، كما أن الفهم الرافض للحضارة الغربية ومفاهيمها وسلوكياتها ظل ساكناً في ضمير الإنسان الجزائري، خاصةً أن الاستعمار خرج بأسلحته، لكنه ظل طامعاً أن يستمر وجوده بشكل آخر، وبصورة الثقافة واللغة، والتحضر. كل هذا لامس نشوء بعض التيارات الإسلامية المتطرفة. وقيام بعض التجارب القتالية ـ أفغانستان ـ جعل العنف يعود إلى المجتمع الجزائري وسيلة لتحكيم الإسلام في حياة الجزائريين، وصادف ذلك تعاقب حكومات ضعيفة لا تحمل رؤية محددة. وواضحة في قيادة البلاد.

هذه الأسباب كلها جعلت العنف يعود إلى الجزائر تعبيراً عن صراع بين ثقافات وانتماءات ورفض ـ بقوة السلاح ـ لبعض هذه الثقافات.

ومادامت الجزائر عاجزة عن تحديد هويتها الوطنية، فإنها

تظل عاجزة عن فرض الأمن والاستقرار، وخاصةً أن القوى الإستعمارية ما زالت طامحة بالرجوع إلى الجزائر واستغلال ثرواتها، وتزييف هويتها، وتشتيت أهلها في انتماءاتهم، وخلق صراعات وهمية.

كما أن العنف والإرهاب ـ الذي يستوطن الصحراء والجبال ـ عاجز عن فرض تصوراته على الجزائريين، لكنه سيكلف البلاد ثمناً باهضاً من الدماء والأموال والسنين.

سادساً: إشكالية دولة جنوب السودان والعامل الديني

إن قيام دولة جنوب السودان دليل على عجز المسلمين ـ لا الإسلام ـ للوصول إلى قلوب الآخرين، وعقولهم كما أنه دليل على قدرة التبشير المسيحي على اقتطاع جزء مهم من أرض المسلمين، وتحويلها قاعدة للقفز على أرض أخرى من أراضي المسلمين.

إن جنوب السودان وإن كان أغلبية سكانه مسيحية إلا انه يُعدُّ مجالاً حيوياً لتحرك الإسلام، وطوقاً آمناً لحفظ أرض المسلمين والتفريط به تفريط بأرض الإسلام. وهكذا كان.

كما أن اصطناع المسيحية وأدواتها ـ الآن ـ الاستعمار والتبشير كل الأساليب لإضعاف الإسلام والمسلمين، كان بفعل أسباب ذاتية، وأخرى موضوعية. فالحكومات التي تعاقبت على حكم السودان كانت حكومات ضعيفة، منشغلة بمشاكلها الداخلية، وصراعاتها السياسية، ورغبة الحكام بالتعلق بالسلطة غافلين عما يحدث داخل بلادهم وعن مستقبلهم.

كما إن لدول الغرب المسيحي دوراً كبيراً في تمويل الحركات التبشيرية، والعمليات العسكرية التي يقوم بها المتمردون، وفي

دعمهم مالياً وإعلامياً وتسليحاً مما خلق ظرفاً مناسباً للمطالبة بالانفصال. وقد قامت دول الغرب المسيحي بدور سياسي بدعوى: الحرية، وتقرير المصير، وحقوق الإنسان، فدعمت فكرة الانفصال، وضغطت على حكام الخرطوم فأجبرتهم أن يتنازلوا عن بعض أجسامهم بتنازلهم عن أرضهم.

إن انفصال جنوب السودان بمسوغ العامل الديني ليس صحيحاً وإنما المصالح السياسية لدول الغرب المسيحي، والإستراتيجية الصهيونية التي هدفها محاصرة العالم العربي، واختراقه من كل جهة هو الهدف من إقامة دولة جنوب السودان.

فالأفارقة المسيحيون، يعيشون الحالة نفسها التي يعيشها الأفارقة والعرب المسلمون: تخلفاً، واضطهاداً، وجهلاً، وفساداً. فلا يصلح العامل الديني ـ على هذا ـ لتبرير قيام دولة جنوب السودان.

سابعاً: البحرين: العامل الطائفي

البحرين جزيرة صغيرة، منذ عقود قليلة كان يغلب على أهلها التشيع، استعمرتها بريطانيا باستعمارها الخليج، وفرضت عليها حكاماً من السنة الذين يمثلون أقلية سكانية. هذا الأمر أجج الصراع بين ما تريده الأكثرية من ممارسة شعائر وإعلان عقائد ومراعاة مصالح، وبين الحكام الذين تبنوا الأقلية وعقائدها ومصالحها. وكان نتيجة هذا الصراع هجرة كثير من الشيعة إلى إيران والعراق ودول مجاورة أخرى. وقد كان الصراع في الماضي محلياً محدوداً بين حاكم ظالم مضطهِد، وبين شعب محكوم مضطهَد.

أما الآن فقد اتسعت رقعته ودخلت فيه عناصر أجنبية ودولية،

فمنذ أن انتصرت الثورة الإسلامية في إيران استنفرت الولايات المتحدة حلفاءها، واستنفرت قواتها التي أعطاها صدام حسين مبرراً للوجود والمرابطة في المنطقة، وكذلك استنفرت القوى السلفية طاقاتها وقواتها لشن حرب على البحرين المسلم.

إن ما يجري في البحرين من مذابح طائفية تستهدف شعب البحرين الأعزل المسالم تقوم بها القوات السعودية، وقوات الأمن البحريني، والمرتزقة من كتائب فدائيي صدام حسين وبعض الباكستانيين والأفغانيين.

إن شيعة البحرين.. قوم مسالمون يحرم عليهم مذهبهم العنف والإضرار بالآخرين، منهم العلماء، ومنهم المثقفون، لا يطمحون إلى حكم، أو سلطة، وإنما يطمحون إلى إقامة شعائرهم، واحترام عقائدهم ويطالبون بإقامة العدل بين الناس فيكون لهم ما للناس وعليهم ما على الناس. وإن تجاوزوا شيئاً فإنما يطالبون بمطلب متحضر وهو إقامة حكم دستوري. وما في ذلك ضير، أو ذنب.

إن موقف العالم ـ الذي يدّعي التحضر ـ من مذابح البحرين لهو موقف يدعو إلى العجب والاستغراب، ففي حين تتدخل أمريكا في بلاد ما لحماية حقوق الإنسان تقف موقف المتفرج إزاء ما يحدث في البحرين.

إنه النفاق السياسي. فأين المبادئ الحرة؟

ثامناً: السعودية: الشرقية

المنطقة الشرقية هي... الجزء المأهول من المملكة العربية السعودية. أكثر أهلها من الشيعة الإمامية الإثني عشرية، خرج منها كثير من علماء الدين الشيعة، ومن أهم حواضرها: الأحساء

والقطيف. وفيها تتركز الثروة النفطية التي هي دعائم الاقتصاد السعودي، وأحد الدعائم الرئيسة للإقتصاد النفطي العالمي.

كان الشيعة يعيشون في الشرقية بأمن وأمان يمارسون شعائرهم ويتعبدون بعقائدهم طيلة عهود وعقود إلى زمن سيطرة الحركة الوهابية... وجهازها السياسي المتمثل بالعائلة السعودية على عموم الجزيرة العربية في العشرينات من القرن العشرين. وكان موقف الحركة الوهابية من أهل الشرقية التكفير وإباحة الدماء والأعراض والأموال، ومنع ممارسة شعائرهم والتعبد بمذهبهم، ونشر كتبهم، أو اقتنائها وقراءتها وفرض الحرمان والفقر عليهم وقد يكون هذا الموقف الوهابي من الشيعة طبيعياً، ولكن من غير الطبيعي أن تمارس ذلك السلطة السياسية المسؤولة دولياً والمسؤولة عن أمن وسلامة وحرية مواطنيها.

إن قوة النظام السعودي تكمن في ذلك الزواج غير الشرعي بين السلطة السياسية، والحركة الوهابية، مما أنتج وحدة الموقف، وارتكازه على بنية عقائدية تدّعي لنفسها الأحقية في عالم العقيدة والتشريع.

وكذلك الثروة النفطية الهائلة التي تختزنها أرض الجزيرة، وتحويلها إلى قوة مالية تؤثر بنسبة كبيرة بالوضع الاقتصادي العالمي.

وكذلك الدعم الاستعماري الغربي ـ المباشر وغير المباشر، المكشوف وغير المكشوف ـ للنظام السعودي، وهو جزء من النظام الدولي الغربي وإستراتيجيته في تحقيق مصالحه والحفاظ على استمرارها.

كما إن لقوة العائلة المالكة وامتداداتها الأسرية، وتشابك مصالحها أثّر في قوة النظام السعودي.

لهذا كله... فإن احتمالية التغيير في الحياة السياسية السعودية غير واردة على المدى المنظور، وكذلك موقفها العقائدي من الشيعة.

لقد تعرض الشيعة في المنطقة الشرقية من السعودية إلى ألوان من الإضطهاد، وكبت الحريات، وسحق الإرادات، والقتل الجماعي دون أن يقترفوا ذنباً أو يرتكبوا جرماً، لا لشيءٍ إلا كونهم شيعة، يحافظون على التزاماتهم العقائدية الإسلامية، وعلى ممارساتهم السلمية لشعائرهم من دون مسٍ بعقيدة الآخر ومن دون القيام بعملٍ سياسيٍ يهدد الكيان السعودي ووجوده.

تاسعاً: إيـران: التجربة الإسلامية

إن تجربة إيران الإسلامية، تجربة فريدة، اجتمعت لها من الأسباب والمقدمات ما يجعلها في باب المعاجز الالهية، فقد ولدت من رحم الألم والمعاناة، وشبت في أجواء الصراع المحتدم بين قوى محلّيه ودولية عظمى، وبلغت أشدها ونضجها في حمامات الدم المسفوح من أجل الحرية، وتكاملت على المبادئ الكريمة السامية لأهل البيت عليهم السلام. ومن هنا كانت المعجزة الإلهية تتحقق في عالم يملؤه الصراع على الدنيا، وتسوده قيم الغاب، وتحكمه نزعات الغرائز.

كانت إيران في زمن الشاه محمد رضا بهلوي تعيش حالة الارتياب والانتهاب والتمزق بين حياة مطمئنة تسكنها مفاهيم النبوة، وبين حياة مادية لاهية تنزع نحو الشهوات من غير هدف، ولا نهاية، وكانت تقوم بدور دنيء يرضي أهداف قوم بعيدين عنها ـ لقاء حماية ـ على حساب مصالح المنطقة وأهلها، وكانت تكرس

نزعة السيطرة والإستعلاء ولو بكيان أجوف. وما إن تحرك مارد الدين في نفوس شعبها المسلم حتى تهاوى عرش الطاووس فأصبح هباءً منبثاً. ولا نغفل دور القيادة الشجاعة الواعية التي ترى الأمور بميزان الحكمة والتعقل غير ناسية سنن الله في الأرض، ولا غافلة عن ارادة الله ونصره. هذه القيادة متمثلة بالإمام السيد روح الله الخميني (رحمه الله) بما يملك من عزم وتصميم وإرادة وقوة بصيرة وحسن تخطيط. فتكللت جهوده بقيام الثورة التي أثمرت الجمهورية الإسلامية.

ولدت الجمهورية الإسلامية في إيران وسط عواطف جياشة ومشاعر متفجرة للشعب الإيراني المسلم الملتصق بنهج أهل البيت عليهم السلام ولكن لم يكن كل الشعب الإيراني مع الثورة، والجمهورية الإسلامية. وولدت الجمهورية الإسلامية في إيران، وهي جزء من منطقة تسكنها شعوب إسلامية على درجات متفاوتة من الوعي والالتزام الديني ولكن حكامها كانوا طواغيت ظالمين يحكمون شعوبهم بقوة الحديد والنار، وهم مع ذلك خدم أذلاء لأسياد أجانب لهم مصالحهم في المنطقة يأتمرون بأمرهم ولو على حساب شعوبهم.

ولدت الجمهورية الإسلاميه في إيران وفي المنطقة نزعات فكرية متقاطعة ومذاهب دينية متعارضة مع مذهب أهل البيت عليهم السلام الذي ولدت الثورة والجمهورية من رحمه.

ولدت الجمهورية الإسلامية في إيران وفي المنطقة دولة تسمى (إسرائيل) اجتمعت دول الاستكبار والباطل على إيجادها والدفاع عن وجودها الغاصب بكل الإمكانيات السياسية والاقتصادية والعسكرية لتبقى ويفنى غيرها، فكيف يرضون بقيام دولة الحق التي تهدد كيان الباطل. والأعظم من ذلك إن هذه الجمهورية الوليدة

حرصت على الالتزام بالإسلام بكل خطوطه العريضة والدقيقة والتفصيلية، فهي دولة الإسلام بكل مفاهيمه وأحكامه، وحدوده، وقيوده. فكيف يقرون بذلك؟.

لقد أنعش قيام الجمهورية الإسلامية في إيران نفوس قوم مؤمنين وأعاد الثقة بتيار الإيمان، وعقيدة التوحيد، ونهج النبوة فارتفعت رؤوسهم، وتطاولت أعناقهم لاستنشاق نسيم الحرية الحقيقية، وتراصت صفوفهم دفاعاً عن الإسلام وأهله، فأصبحت له كلمة، وأمست له كرامة هي كلمة التوحيد، وكرامة العزيز المجيد.

ولم يعجب ذلك أهل الباطل والظلال، فتحفزوا وحشدوا قواهم، وتحركوا باتجاهات متعددة: في داخل إيران تخريب، واغتيال، وافتعال، ومشاكل وأزمات. ومن خارج إيران حصار اقتصادي، وغزو عسكري، وحرب إعلامية تشوه الحقائق، ومن بعد ذلك تحريض صدام حسين ـ رجل المرحلة ـ على غزو إيران وتدميرها لإسقاط الثورة، وإسقاط الجمهورية، ففعل صدام ونظامه ما تعجز عن فعله كل قوى الباطل والظلال على مدى عقود. واستمرت حرب صدام ثماني سنوات، منعت الثورة الإسلامية أن تمتدّ أو تتخطى حدود إيران، ومنعت إيران أن تعيد بناء نفسها وقد خرجت من الثورة مدمرة مبعثرة. ولكن لله إرادة قاهرة فوق كل الإرادات، وقد هيأ لإيران اناساً مخلصين: قيادات ورعايا، حكاماً ومحكومين، تنكروا لذواتهم وقد أدركوا أن تجربتهم هذه هي تجربة الإيمان، ودولة الإسلام، ومصداقية قيام منهج أهل البيت عليهم السلام في الأرض. فكان أن نهضت إيران في مختلف المجالات وفرضت احترامها على العالم، وأصبحت تجربتها ـ رغم الإعلام التظليلي المعادي نموذجاً للعالم الثالث النامي.

إن تجربه إيران الإسلامية واجهت كثيراً من التحديات منها

التحديات الذاتية، ومنها التحديات الموضوعية. فتجربة إيران تجربة جديدة على العالم لأنها تستند على بناء أيديولوجي صارم، يجب الالتزام بكل حدوده وبنوده، وهو معرض للانحراف، أو التغيير وهو ما لايسمح به. أصبحت إيران به قوة إقليمية كبرى.

ولجدّة هذه التجربة فإن من الممكن أن تقع في أخطاء، إذا تراكمت تعرضت التجربة كلها إلى الخطر. كما إن إيران في سعيها لأن تكون قوة عالمية، فإنها اتجهت إلى التسلح، وأهملت الإنسان: في مأكله، وملبسه، ومسكنه. وتوفير ضروريات حياته، فضلاً عن رفع مستواه الاقتصادي والاجتماعي وهذا ما يعرض التجربة إلى الانزلاق في دروب غير أمينة. ويجعل أنصارها والمؤمنين بها ينقلبون عليها.

ولا ننسى سعي الدول المعادية لتجربة إيران الإسلامية إلى الإساءة إليها بدعاوى شتى منها: تشجيع الإرهاب. ومنها امتلاكها أسلحة الدمار الشامل، ومنها عدم احترامها حقوق الإنسان، وغير ذلك من الأباطيل. الذي جعل إيران منشغلة بدفعها، ومما جعل صورتها تتشوه في نظر كثير من أبناء الأمم الأخرى.

إن إيران إذا أرادت لتجربتها الفتية أن تشتدَّ وتتسع فما عليها إلا أن توفر لشعبها حياة كريمة رغيدة، وتمنحه حرية التفكير والتعبير والاختيار، وأن تهيئ له الظروف الملائمة لنمو شخصيته، وتتضح هويته، وتقوى إرادته بإزاء شعوب العالم.

إن المرونة مطلوبة اليوم في تجربة إيران الإسلامية ولكن ليس على حساب الثوابت الإسلامية، فإن تجربتها هي تجربة الإسلام في الأرض، وسوف تصبح ـ تاريخياً ـ معياراً لكل التجارب الإسلامية.

نعم من حقها إن تعلي من شأن الوطنية الإيرانيه لكن ليس

على نحو الامتداد على الأرض، ومن حقها أن تعتز بفارسيتها، ولكن ليس على نحو التعالي والشوفينية، ومن حقها أن تدعو لمذهب أهل البيت ﷺ وتعمل به، ولكن ليس على نحو المذهبية والطائفية، ومن حقها أن تمسك بثوابتها، ولكن بشرط ألا يقودها ذلك إلى العزلة. فإيران الإسلامية لها رسالة هي رسالة الإسلام ورسالة تبليغ مذهب أهل النبوة إلى العالم أجمع. وهو هدف لو تعلمون عظيم.

عاشراً: أفغانستان وحركة القاعدة..

أفغانستان، بلاد تقع في أواسط آسيا، ذات طبيعة وعرة وقاسية، فأرضها مكونة من مجموعة من الهضاب والجبال، وليس لها منفذ على البحر. أهلها ـ في أغلبهم ـ بدو ورعاة، يعيشون على الرعي والزراعة. حاول ملكهم (أمان الله) في ثلاثينيات القرن العشرين تحديثهم على طريقة أتاتورك ومحمد رضا بلهوي، فرفضوه وعزلوه. ولم تدخل افغانستان دائرة الضوء إلا بعد انقلاب محمد داود عام (1975م) الذي أعلن فيه سقوط الملكية وقيام الجمهورية، لكن حلفاءه الشيوعيين انقلبوا عليه، وأعلنوا حكمهم الموالي للاتحاد السوفيتي، ولم يرض الشعب الأفغاني المسلم بذلك فتحركت قوى افغانية ـ تساندها قوى دولية إسلامية وغير إسلامية ـ لإسقاطه، وخاضت حروباً ضارية ضد قوى السلطة الشيوعية التي استعانت بجيوش سوفيتية جرَّارة. بيد أنها خسرت المعركة أمام الفصائل الأفغانية المدعومة، وكانت هزيمة السوفيت في أفغانستان سبباً في تفكك الاتحاد السوفيتي، وانهياره.

وبعد ذلك دخلت الفصائل الأفغانية ـ التي كانت توحدها الحرب ضد الشيوعيين ـ في صراع دامٍ من أجل السلطة حتى

ظهرت طالبان المدعومة بأموال سعودية خليجية وأسلحة أمريكية فاكتسحت الساحة، وسيطرت على العاصمة (كابل) وأعلنت حكومتها الإسلامية، وبدأت تفرض ـ مع حليفتها القاعدة ـ تصوراتها البدوية والبدائية عن الإسلام على الناس، فعزلت أفغانستان عن العالم، وقدمت صورة مشوهة عن الإسلام، ومفاهيمه، وتصوراته، حتى حدث تفجير مركز التجارة الدولية في (11/ 9/ 2001م) وحمّلت مسؤوليته منظمة القاعدة حليفة طالبان والمتحصنة في أفغانستان فشنت الولايات المتحدة الأمريكية الحرب على نظام طالبان حتى أسقطته وطاردت رموزه، وأقامت سلطة موالية لها على رأسها (حامد كرزاي) تدين بأفكارها بالحرية والديمقراطية. لكن فلول طالبان وحليفتها القاعدة بزعامة (بن لادن) أعادت تنظيم صفوفها وبدأت بعمليات عسكرية ضد القوات الامريكية وحلفائها كان ضحيتها الشعب الأفغاني، وحياته المدنية. ومازالت هذه الحرب الضروس قائمة، ولا أمل في نهاية قريبة لها. وقد حاولت الولايات المتحدة الامريكية إنهاءها بسبل شتى، لكنها فشلت في كل ذلك: حاولت إنهاءها بالقوة العسكرية الهائلة، وحاولت إنهاءها بإقامة نظام سياسي ديمقراطي، وحاولت إنهاءها عن طريق مفاوضات مع عناصر معتدلة من طالبان وتنظيمات أخرى، لكنها ـ كما قلنا ـ فشلت في كل ذلك وما زالت الحرب تشكل عبئاً عسكرياً وسياسياً واقتصادياً عليها وعلى حلفائها. وكانت حركة طالبان وحلفاؤها يدركون ذلك فعمدت طالبان إلى تصعيد عملياتها، واستنزاف قوات (الناتو) مادياً وبشرياً تمهيداً لإخراجها من أفغانستان مهزومة.

إنّ أخشى ما تخشاه الولايات المتحدة الامريكية هو.. أنه بعد انسحابها أن تستلم طالبان السلطة من جديد في أفغانستان، وأن تنهار باكستان تحت ضربات طالبان باكستان، وتصبح المنطقة قاعدة

لانطلاق عمليات إرهابية تستهدف الغرب المسيحي ومؤسساته. وهذا يعني دخول العالم في دوامة جديدة من العنف، وعدم الاستقرار السياسي، والانهيار في الوضع الاقتصادي مما يهدد أمن شعوب الغرب المسيحي ورفاهيته.

إن حل المشكلة الافغانيه يجب أن يكون حلاً إسلامياً. أي: تسعى الدول الإسلامية أن توقف نزيف الدم بالإنسحاب الأمريكي من أفغانستان، وإدخال جيوش إسلامية تحفظ التوازن السياسي والأمني في أفغانستان، وإجراء انتخابات حرة ونزيهة للحكومة ومجلس النواب، ويتعهد الكل باحترام نتائج الانتخابات، وتقوم الدول الإسلامية ـ كل بحسب إمكاناته ـ بإعادة إعمار أفغانستان، وإدخالها إلى عالم الاستقرار، والحياة المتجددة والمتطورة. وبذلك تحل قضية أفغانستان بعيداً عن التدخلات الأجنبية. والتصورات الغربية، وصراع النفوذ على الأرض والثروة.

خاتمة البحث

في بحثنا عن الأصول المشتركة للأديان، وإمكان تشكلها في مجموعة مسارات: فاستخلاف الإنسان ـ أي إنسان ـ وفق شريعة الله هي فكرة دينية عامة، تنتظم الأديان جميعاً من آدم ﷺ إلى محمد ﷺ.

كما إن مهام الاستخلاف واحدة في جميع الأديان.

مثلما هي منظومة القيم والفضائل التي تشترك بها كل الأديان. ويمكن أن تكون نظرية عامة تشترك بها كل الأديان، وما شرعه الله من فضائل وقيم للأديان السابقة هي قيم لنا أيضاً. فهي عناصر مشتركة بين أديان السماء لأنها تنبع من فطرة الإنسان الذي عبّر عنها الدين تعبيراً سليماً.

وحرية العقيدة، والتعبير عنها ـ كما قررها الإسلام ـ أرض يمكن أن يقف عليها كل معتنقي الأديان من دون شعور بالقسر والإكراه لأن تجليات العقيدة واحدة قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]. والشعور بالآخر، واحترام عقيدته، والإيمان بالأرض المشتركة الواحدة يمكن أن تسقط فرضية الإرهاب، وتمسح كل آثارها على الأرض.

---

(1) سورة الذاريات: الآية 56.

إننا ندعو إلى وحدة البشر على الأرض، وتجاوز كل الفروقات المفتعلة التي من أسبابها ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، وفهمه الضيق لدين الله، والحرص على المصالح الضيقة التي تصادر حدود الاخرين ولاتحترم ملكياتهم الخاصة التي وهبها الله لهم مثل الحرية والامان وحق العمل وحق السكن وحق التمتع بخيرات الارض وغيرها من هبات الله التي نشرها في الارض ليتمتع بها الإنسان. وكذلك الفروقات المفتعلة التي سببتها العقول المنحرفة عن الحق على استعباد الإنسان.

مصادر البحث

القرآن الكريم

نهج البلاغة

الكتاب المقدس (العهد الجديد): 102، الكنيسة.

(1) الإسلام يقود الحياة: الشهيد محمد باقر الصدر. الناشر: وزارة الإرشاد الإسلامي، الجمهورية الإسلامية الإيرانية، الطبعة الثانية، 1403هـ

(2) الأصول العامة للفقه المقارن.. مدخل إلى دراسة الفقه المقارن: السيد محمد تقي الحكيم. مؤسسة آل البيت ﷺ. الطبعة الثانية، آب (أغسطس) 1979م.

(3) أضواء البيان: محمد الأمين الشنقيطي. دار الفكر للطباعة والنشر. بيروت ـ لبنان.

(4) بحار الأنوار: العلامة محمد باقر المجلسي. مؤسسة الوفاء. لبنان ـ بيروت.

(5) تاج العروس من جواهر القاموس: محمد مرتضى الزبيدي. دراسة وتحقيق: علي شيري. دار الفكر ـ بيروت ـ لبنان.

(6) تحديات الإسلام بين الحداثة والمعاصرة: السيد محمد حسين فضل الله. الناشر: دار الملاك للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان

(7) تحف العقول: ابن شعبة الحراني. تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري. مؤسسة النشر الإسلامي. الطبعة الثانية. إيران ـ قم المقدسة

(8) التعريفات: الجرجاني. تحقيق: إبراهيم الإبياري. دار الكتاب العربي، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، 1405هـ

(9) التفسير الموضوعي ـ السُنن الإلهية وأنواعها: السيد محمد باقر الصدر، دار التعارف، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية، 1981م.

(10) جامع أحاديث الشيعة: السيد أقا حسين الطباطبائي البروجوردي. المطبعة العلمية. إيران ـ قم المقدسة، 1400هـ

(11) جدلية الثيوقراطية والديمقراطية: حسن السيد عز الدين بحر العلوم. الناشر: دار الزهراء، 1428هـ

(12) دروس في العقيدة الإسلامية: الشيخ محمد تقي مصباح يزدي. مؤسسة الهدى للنشر والتوزيع.

(13) الدين في التصورات الإسلامية والمسيحية: الشيخ حسن بدران. الناشر: دار المعارف الحكمية، 2010م

(14) الدين في التصورات الإسلامية المسيحية: الدكتور جورج صبرا. الناشر: دار المعارف الحكمية، 2010م

(15) الدين في التصورات الإسلامية المسيحية: الدكتور وجيه قانصو. الناشر: دار المعارف الحكمية، 2010م

(16) رسالات السماء: آية الله العظمى الشيخ محمد أمين زين الدين

(17) الشهيد محمد باقر الصدر من فقه الأحكام إلى فقه النظريات: صائب عبد الحميد. مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي. الطبعة الأولى، 2008م،

(18) عقائد الإمامية في ثوبه الجديد: فارس علي العامر. صياغة جديدة لكتاب عقائد الإمامية للشيخ المظفر، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت ـ لبنان.

(19) العقيدة الإسلامية في ضوء مدرسة أهل البيت ﷺ: الشيخ جعفر سبحاني، تحقيق ونقل إلى العربية: جعفر الهادي، في سلسلة الكتب العقائدية، إعداد: مركز الأبحاث العقائدية، الناشر: الوكالة العالمية للتوزيع.

(20) علوم القرآن: السيد محمد باقر الحكيم. مجمع الفكر الإسلامي. قم المقدسة ـ إيران، الطبعة الثالثة.

(21) في ظلال القرآن: سيد قطب. دار الشروق، الطبعة السابعة، 1978م.

(22) الكافي: الشيخ أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني. تصحيح وتعليق: على أكبر الغفاري. الناشر: دار الكتب الإسلامية.

(23) كشاف اصطلاحات الفنون: محمد علي الفاروقي التهانوي. تحقيق: لطفي عبد البديع. المؤسسة المصرية. القاهرة.

(24) لسان العرب: جمال محمد بن مكرم ابن منظور. نشر أدب الحوزة. قم المقدسة ـ ايران.

(25) المحاسن: أحمد بن محمد بن خالد البرقي. نشر وتصحيح وتعليق: السيد جلال الدين الحسيني. دار الكتب الإسلامية. إيران ـ قم المقدسة

(26) المجتمع الإنساني في القرآن الكريم: السيد محمد باقر الحكيم. الناشر: مؤسسة تراث الشهيد الحكيم، مطبعة العترة الطاهرة، الطبعة الثانية، 2006م.

(27) معالم العقيدة الإسلامية: محمود عبد الرحمن عبد المنعم، جامعة الأزهر، القاهرة ـ مصر.

(28) مفردات غريب القرآن: العلامة الراغب الأصفهاني. تحقيق: صفوان عدنان داوودي. الناشر طليعة النور. إيران ـ قم المقدسة.

(29) ميزان الحكمة: محمد الريشهري. دار الحديث. إيران ـ قم المقدسة.

(30) الميزان في تفسير القرآن: السيد محمد حسين الطباطبائي. منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية. إيران ـ قم المقدسة

(31) نظرة عامة في العبادات: الشهيد محمد باقر الصدر.

(32) نهاية الأفكار: الشيخ محمد تقي البروجوردي. تقريرات المحقق آية الله العظمى الشيخ أغا ضياء الدين العراقي. مؤسسة النشر الإسلامي. إيران ـ قم المقدسة

(33) وسائل الشيعة: الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي. تحقيق: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث. إيران ـ قم المقدسة.

(34) الشيخ جعفر سبحاني: معنى الدِين وما المقصود به/ الموقع الألكتروني www.islam4u.com

(35) الموسوعة الحرة: www.wikipedia.com

المحتويات